

عبد الحسيب



المشاهير والسجون

(مجموعة مقالات قديمة نُشرت في مجلة الهلال منذ ثمانين عاماً تقريباً)

اعتنى بنشرها

سليمان بن صالح الخراشي

قدم لها فضيلة الشيخ الأديب

عائض بن عبد الله القرني

دار الأثر

المشاهير والسجون

مجموعة مقالات قديمة نشرت في مجلة الهلال
قبل شائين عامًا تقريبًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار الأمل

المملكة العربية السعودية - ص.ب ٦٤٣٧٧ الرياض ١١٣٥٦

تلفون: ٤٢٨٥٣٩٠ - فاكس: ٢٦٧٢٥٥٨

المشاهير والسجون

مجموعة مقالات قديمة نشرت في مجلة الهلال
قبل ثمانين عاماً تقريباً

اعتنى بنشرها

سليمان بن صالح الخراشي

قدم لها

فضيلة الشيخ الأديب

عائض بن عبدالله القرني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة للشيخ عائض القرني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصبحه وبعد :
 فالسجن بيت الأحزان، ومقبرة الأحياء، ومجمع الهموم، فيه يقيد
 الذهن، ويحبس الضمير، وتغلق نوافذ الآمال، وفي السجن ترخص
 الحياة، ويعاف البقاء، ويطوف موكب الموت على القلب، ويسل
 الهلاك سيفه على الأعناق، في السجن تذوب المهج، وتسحق الهمم،
 وتفتت الأكباد، ليس في السجن إلا حيطان صامته، وألواح جامدة،
 وأبواب موصدة، صمت رهيب تكاد تحتق منه النفس، وسكوت مطبق
 تشرف منه الروح على البرزخ، أعاذك الله من السجن؛ لأنه بيت
 الوحدة والوحشة والفراق والحسرة والأسف، ويكفيك بشاعة السجن
 أن يوسف عليه السلام قال لصاحبه: ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾، وهو نبي
 معصوم مؤيد، ولكن السجن مدهش محير مخيف، وقد قرأت كلام
 العلماء، وقصيد الشعراء، ومذكرات الزعماء وهم في السجن؛ فإذا
 كلماتهم تتقاطر أسفاً وحسرة، وإذا آهاتهم تسيل دماً، في السجن تغيب
 عن الأحباب والأصحاب والإخوان والخلان، فلا عطف والد ولا
 حنان والدة، ولا أنس ابن ولا عزاء صاحب ولا سلوة محب، السجن
 جد صارم، فيه التجهم كله، والعبوس أوله وآخره، والكدر جميعه،

لا جديد في السجن إلا تعاقب السجانين ، تظن في السجن أن الشمس لا تجري وأن القمر واقف وأن الريح ماتت وأن عقارب الساعة لا تتحرك ، وسوف تعيش في هذا الكتاب مع زفرات من السجن وأبيات من الحبس وقصائد خرجت من هناك حيث ؛ الدموع الغزار والتوجع المتواصل ، وهؤلاء هم الشعراء أقل الناس صبراً وأكثرهم شكاً وأرقهم عواطف وألبهم مشاعر.

ولكن العلماء الريانيين لهم حديث آخر مع السجن ، فهم يرونه بيت العبرة والفكرة ، فيه يتجدد الإيمان ويسلم العبد من الذنب ، ويتذكر القدوم على الرب ويدرك تفاهة الدنيا وحقارة العيش فتنهار قلاع الكبر ومستعمرات الرياء والعجب .

وعلى كل حال ؛ فلا أسعد من الصبر على البلاء والشكر على النعماء ، وانتظار الفرج ، وما رأيت من الشعر في وصف السجن أبلغ من قول الشاعر يصف حياته هناك فيقول :

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها	فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء
إذا جاءنا السجن يوماً حاجة	عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا فجعل حديثنا	إذا ما تحدثنا الحديث عن الرؤيا
فإن حسنت كانت بطيئاً مجيئها	وإن قبحت لم تنتظر وأتت سعيأ

وأستاذن القارئ الكريم ليطل معي إلى عالم آخر حيث القيد

والوحدة والفراق، وحيث طول الانتظار ومرارة الإحباط ووحشة الصمت، ولكن بلسان الشعراء فهيا إلى الكتاب .
وصلى الله وسلم على خير خلقه : محمد بن عبد الله وآله وصحبه وسلم.

د . عائض القرني

* * *

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:
فهذه ست مقالات عن أحوال (المشاهير في السجون) نشرها
الأديب عيسى المعلوف في مجلة الهلال المصرية قبل أكثر من ثمانين عاماً
تقريباً، في الفترة ما بين (ديسمبر ١٩١٩م - مايو ١٩٢٠م) أحببت جمعها
وإعادة نشرها لما فيها من أدب رفيع، وحكايات وأشعار ممتعة، صنعها
حبس النفس البشرية في هذا المكان الضيق حتى جاشت بدرر العبارات
والآيات.

ولقد أكثر المؤلف - نظراً لثقافته - من ذكر أحوال الأدباء والشعراء
في السجن، وتوسع في ذلك، بخلاف صنيعه مع الأنبياء والعلماء
والصالحين، فكان هذا ثغرة في كتابه، حبذا لو قام أحد الأخيار
باستدراكها عليه، وتتميم عمله بذكر أحوال أهل الإيمان في السجن،
وسيجد مادة ثرية تعينه.

بقي ثلاثة تنبيهات:

الأول: أنني علقت في الهامش على ألفاظ يسيرة أخطأ فيها
الكاتب، وذيلت تعليقي بحرف (س)، وكذلك حذف ألفاظاً فاحشة
وجعلت بدلها نقطاً متتالية.....

الثاني : أنني اطلعت على كتاب بديع بعنوان (أدباء السجون) للأستاذ عبد العزيز الحلفي، طُبع دون تاريخ، يتحدث عن هذا الموضوع، وقد حوى شخصيات أدبية كثيرة كانت لها مع السجن صفة وعلاقة.

الثالث: أن بعض الباحثين أنكر أن يجمع (مشهور) على (مشاهير) فرد عليه الأديب انستاس الكرملي وبين خطأه، وأيد صواب هذا الجمع، ثم عرض رده على العلامة محمود شكري الألوسي فأيده في هذا، وكان من قوله له : (إن لفظ مشاهير أشهر من نار على علم ، واستعمال البلغاء لها قديماً وحديثاً لا يحيط به نطاق الحصر)^(١).

والله أعلم ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

* * *

(١) أعلام العراق، للأثري ، ص ١٩١ .

ترجمة صاحب مقالات (المشاهير والسجون) *

هو عيسى بن إسكندر ابن الخوري إبراهيم بن عيسى بن شبلي أبي هاشم المعلوف، ولد في قرية "كفر عقاب" اللبنانية في ١١ نيسان سنة ١٨٦٩م، فتلقى مبادئ العلوم في مدرسة قريته الأنجيلية. وفي أواخر سنة ١٨٨٤م دخل مدرسة الشوير العالمية الأنجيلية في لبنان ودرس الإنكليزية والعلوم على رئيسها الدكتور وليم كرسلو الاسكتلندي، وتخرج بالعربية. ثم ترك المدرسة لداع في أسرته ودرس على نفسه. ثم درّس في مدرسة الآباء اليسوعيين في قريته، وولع بالمطالعة واقتناء الكتب. وفي ٥ كانون الأول سنة ١٨٩٠م عين محرراً لجريدة "لبنان" التي أنشأها نسيه إبراهيم الأسود وكتاباً لإدارتها أيضاً في بعدها ومصححاً لمطبوعاتها. وكتب فيها مقالات عمرانية وأدبية ولا سيما في الزراعة والصناعة والتجارة والاقتصاد والأوضاع العربية.

وتولى تصحيح كتاب "البصائر النصيرية" في المنطق بمشاركة جرجس صفا بالمقابلة على نسخة قديمة. ولم يتم من هذا الكتاب إلا نحو

(٠) منقولة من (تاريخ الصحافة العربية) لطرازي (١/٢٣٤-٢٣٨) بتصرف وزيادة.

وللمعلوف ترجمة في (الأعلام) للزركلي (١٠١/٥)، وفي (معجم المطبوعات العربية

والعربية) لسركيس (١٧٦٥/٢) وفي (معجم المؤلفين) لكحالة (٢٠/٨).

نصفه ؛ لقفل المطبعة والجريدة في أول عهد نعوم باشا متصرف لبنان بعد أن ظهر من الجريدة ٨٦ عدداً.

فعاد إلى مسقط رأسه واشتغل في التصنيف، فوضع كتاب "لطائف السمر في لبنان والقرن التاسع عشر" وهو يبحث في شؤون لبنان وحكوماته وعادات سكانه وخرافاتهم وآدابهم الخ، ولا يزال مخطوطاً. وكذلك بدأ بوضع كتابه "دواني القطوف" في تاريخ أسرة المعلوف والأسر الشرقية، وهو الذي طبعه بعد ذلك. ووضع كتاب "الإغراب في الإغراب" ولا يزال مخطوطاً.

وسنة ١٨٩٣م طُلب لتدريس آداب العربية والعلوم العالمية والإنكليزية في "مدرسة كفتين" الأرثوذكسية في لبنان قرب مدينة طرابلس الشام. فدرّس فيها بضع سنوات وتخرّج عليه كثير من الأدباء والكتبة والشعراء. ونظم فيها ثلاث روايات تمثيلية هي: "مقتل بطرس الأكبر لولده الكسيس" و"جزاء المعروف" و"ذبح إبراهيم لولده" وهي مخطوطة. ووضع في تلك المدرسة بعض مؤلفات؛ مثل: "الكتابة" التي طبع منها الجزء الأول. ورسالة "الشعر والعصر" المطبوعة أيضاً. و"شذذ القريحة في المقطعات البليغة الفصيحة" وهو في الشعر والشاعر والفنون الشعرية، ومنتخبات الأشعار مرتبة على أسلوب جديد يقع في ١٦٠٠ صفحة. و"تحفة المكاتب للمعرب والكاتب" وهي في الأوضاع اللغوية والمعربات. و"المشجرات" وهي تقسيم العلوم العربية لتسهيل تعلمها على طريقة

"السينويستيك" الفرنجية. وهذه الكتب الثلاثة لم تطبع.

ثم عاد إلى تحرير جريدة "لبنان" بعد استئناف نشرها، وإذ ذاك تزوج السيدة عفيفة كريمة إبراهيم باشا معلوف من زحلة. وجاء زحلة مستقداً لتدريس الحلقات العليا في "الكلية الشرقية" المنشأة إذ ذاك عام ١٨٩٨م، فدرّس فيها آداب العربية والرياضيات والإنكليزية بضع عشرة سنة. على أنه غادرها سنة واحدة انتدب فيها سنة ١٩٠٨م لإدارة المدارس الأرثوذكسية في دمشق.

فاستقدمته "الكلية الشرقية" إليها في السنة التالية. ولما كان في دمشق حرّر جريدة "العصر الجديد" ثم مجلة "النعمة" البطريركية التي رتبها وأنشأ مقالاتها التاريخية والعلمية؛ منها "تاريخ الصحافة".

ولما كان في "الكلية الشرقية" أنشأ في أول تشرين الأول سنة ١٩٠١م جريدة "المهذب" لطلبة البيان فطبعها على الهلام (الجلاتين) ثم نيل امتيازها وتولى تحريرها مدة. وأنشأ سنة ١٩٠٩م جريدة "الشرقية" على الهلام أيضاً لتلاميذه. وكان في ٦ آذار سنة ١٩٠٣م قد أنشأ في تلك المدرسة "جمعية النهضة العلمية" وترأسها وهي للتمرين على الخطابة والمباحث الأدبية.

ولقد تخرّج على يده معظم ناشئة زحلة ولبنان الجديدة وهم من الأدياء والصحافيين في الوطن والمهجر. وفي شهر تموز سنة ١٩١١م أنشأ مجلة "الآثار" الشهيرة وهي متحف لأقلام كبار الكتاب في سوريا والعراق

ومصر. وكان أول ما نشر فيها صورة الأمير فخر الدين الثاني المعني وترجمته المطولة عن مخطوطات نادرة أهمها تاريخ "الخالدي" و"ذيل الكواكب" للنجم الغزي ونحوهما.

وُنشرت له مقالات كثيرة وقصائد في أهم المجالات والجرائد في سورية ومصر والمهجر؛ كالبيان والضياء والمقتطف والهلال والمشرق والشمس والرئيس والمقتبس والطبيب والإنسانية والصفاء والنور والحقيقة وفتاة الشرق والسمير والزهور والكوثر والاقتصاد والحسنة وكوكب البرية وحمص والأيام والبرازيل والأفكار والمحيط والشهاب والرائد المصري والطرائف وزحلة الفتاة والمهذب وأشباهاها.

ومما نشره من مؤلفاته "تاريخ زحلة" و"خطاب الأخلاق مجموع عادات" و"الأم والمدرسة" و"دواني القطوف في سيرة بني المعلوف" و"الكتابة" و"تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني" و"الأسر العربية المشتهرة بالطب" و"قصر آل عظم بدمشق" و"تاريخ لبنان". ومما لا يزال مخطوطاً منها "أسرار البيان" و"مغاوص الدرر في أدباء القرن التاسع عشر" و"الأخبار المروية في الأسر الشرقية" في بضعة مجلدات و"قطوف الفوائد من رياض الجرائد" في بضعة عشر مجلداً و"الطرف الأدبية في تاريخ اللغة العربية" و"العصریات" و"نفائس المخطوطات" و"نوابغ النساء" و"التذكرة المعلوفية" وديوانه الذي سماه "بنات الأفكار" وفيه أكثر من عشرة آلاف بيت في المواضيع الحديثة؛ مثل قوله في الجرائد :

فناشر رياه نسيم الجرائد
هي الغاية الجلى لشهم مجاهد
تعزز آداباً بأفضل عائد
سيبقى بقاء النقش فوق الجلامد
منار الهدى يبدو كقطب
بميدان طرس كالجواد المطارد
بذهن زكي زنده غير صالد
فللكاتب التحرير من دون جاحد

من صاحب مهما استقمت تعرجا
ماء وليس يسير إلا أعوجا

عندما تعطيه بعض المهمم
كل يعطي البعض فابذل تغنم

من ثمر الشر الذميم الوخيم
في حقل شيطان الشرور

إذا فاح طيب من رياض الفوائد
هي العلة الأولى لرفع مواطن
تهدب أخلاقاً ترقى مواطناً
فتاريخنا اليومي فيها مسطر
رعى الله آثار الصحافة إنها
وسقياً لكتاب تجارى يراعهم
أسالوا على القرطاس ماء دماغهم
إذا صنع اليوبيل يوماً لفاضل
ومن شعره العلمي قوله:

ماذا أؤمل في حياتي مرتجي
عجبي لما في طبعه فكأنه
ومن حكمه قوله:

كل شيء تقتنيه في الورى
إنما العلم إذا أعطيته الـ
وقوله:

دع عنك ما قد جنت الكبريا
فالكبرياء زهرة قد نمت

ومن تعريبه قوله عاقداً حكمة شكسبير كبير شعراء الإنكليز :

كم نرى الخمرة داءً يورد المرء رداً

إنها في فيه لصٌّ سارقٌ منه هُناه

وقال مغرباً لشاعر فرنسي :

إن بيتاً ليس فيه ولدٌ يولي المسره

قصٌّ لا طير فيه وجنانٌ دون زهره

ومن تواريخه الشعرية قوله يؤرخ مجلة "البيان" اليازجية سنة ١٨٩٧

م مضمناً شطر التاريخ من قول أبي القاسم الخلوف :

هذي مجلة من بوافر علمه ضرب البيان موارد الأمثال

علامة العصر الرفيع مقامه اب ن اليازجي محطة الآمال

في عهد عباس الأمير بمصره قد نال إبراهيم أوج معالي

والعصر بالتاريخ جلّ وقد محّا "فلق البيان غياهب الأشكال"

إلى غير ذلك من القصائد العصرية والمعربات الكثيرة من أشهر

قصائد شعراء الفرنج على اختلافهم ، ولا سيما الشعر التاريخي ؛ فإنه

أكثر منه كما قال نسييه (قيصر بك المعلوف) من قصيدة في مدحه :

جعلتَ منه سنا التاريخ منبثقاً وكان قدماً سناهُ غير منبثق

توفي المعلوف في (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م)

المشاهير

و

السجون

١- تمهيد:

بينما كنت في غمرة الأحزان في أثناء الحرب العامة ونكباتها، أسمع تارة نبأ الاعتقال فالنفي فالصلب فالمصادرة، وأشاهد بعيني المظالم والضرائب، وأهدد مثل غيري بهذه الكوارث وتلك الفواجئ، إذ دار في خلدي استقراء ما جرى لمن تقدمني من المصائب وما تجشموه من المكاره؛ فجمعت من مطالعاتي ما عرف عند العرب والأعاجم من أشباه هذه الكبائر، مثل شعر الحرب والسجون والنفي والصلب وما ضاهاها، فقتلت بذلك تلك الأوقات المرة، وأحييت ميت الآمال، وهانت لديّ المصائب، واستعدت بالصبر في الضيق. معتمداً على المخطوطات والمطبوعات المتعددة في ما كتبت .

ولقد اقتطفت منها الآن مقالة (المشاهير والسجون) لتشر على صفحات الهلال حسب طلب صاحبه صديقي العزيز ليفثا المطالعون بها لوعتهم، ويبرد المعتقلون غلتهم، ويتلذذ المنكوبون بحلاوة الصبر بعد مرارة الآلام، مرتباً إياها بحسب الأغراض التي تمثلت لي، ولعلي على هدى في ما نقلت متطرقاً إلى ما قيل في الاعتقال والنفي والأسر.. الخ.

٢- سجن المشاهير:

لقد مني كثير من المشاهير بالسجن والاعتقال والنفي والمصادرة

والصلب والرقب^(١) (الشنق) والاستهداف^(٢) والمحنة، ولم يكن عدد المبتلين بمثل هذه النوائب، وبالمصادر والجائحات قليلاً في العالم حتى قال أحد الشعراء:

أقتلاً وسجناً واشتياًقاً وغربةً ونأي حبيب ان ذا لعظيم

ومن أقدم من اشتهر من المسجونين باحتمال المحنة سقراط الفيلسوف اليوناني الذي زج في أعماق السجن وله فيه أقوال رائعة؛ منها: "إذا جمعت نوائب الناس إلى محل واحد ليتقاسموها بالتساوي فالذين يحسبون أشقى الناس وأنكدهم حظاً يفضلون نصيبهم الأول على ما ينالونه من هذه القسمة". ومن إباطه المشهور أنه لما عرض عليه تلاميذه المساعدة ليفر من السجن أبى وفضل تجرع السم والموت. ومن أقواله يخاطبهم: "أرشدوني إلى مكان لا موت فيه فأفرّ إليه" ولما بكى أصحابه وطلبته وهو يتجرع السم قال لهم: "لماذا تبكون؟ ألم نخرج النساء حتى لا نسمع العويل؟ كونوا رجالاً واعملوا عمل الرجال".

وكذلك يوسف الصديق^(٣) فإنه صبر على مضض البلوى لما تجتني عليه وهو بريء. وما زال يغالب الأيام ويكافح المتاعب ويناصب

(١) وضعت هذه الكلمة للشنق من رقب الرجل أو نحوه إذا وضع الجليل في رقبته وأما الصلب فمعروف.

(٢) بمعنى أن يكونوا هدفاً للرصاص.

(٣) عليه السلام. (س)

العوائق حتى توفيق إلى تفسير حلم فرعون فنال سدة الملك، وذاق حلاوة الهناء بعد تجرعه مرارة العناء من يوم حسده إخوته ثم باعوه ثم اعتقل.

وهكذا فعل إرمياً النبي في معتقله، والفتية الثلاثة، وكثير غيرهم، مثل غليلو الفلكي الذي لزم سجنه سنوات كثيرة وكان لا يأكل فيها إلا يابس الخبز، فكتب كثيراً من آرائه وهو مجاوز الخامسة والسبعين من عمره، وبقي مصراً على رأيه في دوران الأرض رغماً عن التهديد والوعيد فضايقوه في سجنه حتى ألزموه مرة أن يقول إنها لا تدور. فأجابهم: "كيف أنكر تحركها وأنا أشعر باهتزازها تحت قدمي" ثم رفس الأرض برجله وقال لهم: "فوق كل ذلك أنها تدور".

وخرستوف كولب مكتشف أميركا مني بمحنة السجن واحتمال الاضطهادات حتى أنه لم يضجر من التحامل والانتقام فقال لممتحنه: "اجعلوا قيودي معي في إراني (تابوتي)".

ومثلهم الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان الذي ذاق من عذاب السجن ألواناً لإكراهه على القضاء وهو في السبعين من عمره فلم يرهق ذلك التشفي عزمه، بل زاده تمسكاً بآرائه وترك وصية لابنه ووصية لأصحابه ومات في سجنه. وجاراه بتلك العزيمة ابن تيمية الشهير المعتقل في قلعة دمشق وغيره.

فكانت محنة المشاهير في كل عصر تتناول الأنبياء والأولياء

والمصلحين والفلاسفة والعلماء والمنكودي الحظ والبسطاء على اختلاف مراتبهم، واتصلت بعصرنا الماضي والحاضر، فنكب بها كثير من المشاهير أخصهم نابليون بونابرت الذي كان يقلب صفحات الكتاب في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة ويقول: "سينساني التاريخ لأنني خلعتُ عن سدة الملك" ولما عرض عليه أتباعه بعض أساليب لفراره قال: "خير لي أن أموت هنا شهيداً فإن ذلك قد يعيد الملك إلى ابني إذا بقي حياً".

ومن لطائف ما يحضرنني من الأقوال في الحن والاعتقال قول التلمود: "خير للإنسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً" وقول هوراس: "إن ما نتجشمه من المصائب نراه أخف محملاً مما يكابده غيرنا إذا طلبت منا المقايضة به" وقول محمد الأبيوردي:

تنكر لي دهري ولم يدر أنني أعزُّ وأهوال الزمان هونُ
وظل يريني الخطب كيف اعتداؤه وبت أريه الصبر كيف يكونُ

وقول شكسبير الشاعر الإنكليزي مما عربه الشيخ أمين الحداد اللبناني:

إذا ما تراءى الصبر لي حال دونه مصاب أبي عندي فأبكي وأطرقُ
وحيث مجال الدمع في العين واسع فثم مجال الصبر في القلب ضيقُ

ولما مثل القبعثري أمام الحجاج بن يوسف الثقفي تهدده بقوله:
"لأحملنك على الأدهم" فقال القبعثري: "مثل الأمير من يحمل على

الأدهم والأشهب". فقال الحجاج: "إنما أردت الحديد" فأجابته: "والحديد خير من البليد" وفي ذلك التفنن بأساليب الكلام ما فيه. ولكثير من الأدباء في مثل هذه المواقف بدائع لا محل الآن لاستقرارها.

ومن بديع ما قيل في السجن على التشبيه إغاز أحدهم في الإبريق

بقوله:

ومحبوس بلا ذنب جناهُ له في السجن ثوب من رصاص

إذا أطلقته وثب ارتفاعاً يقبل فاك من فرح الخلاص

وقول الأرجاني مشبهاً:

تقصد أهل الفضل دون الورى مصائب الدنيا وآفاها

كالطير لا يحبس من بينها إلا التي تُطرب أصواتها

٣- أعمال المسجونين في معتقلاتهم:

لقد رأينا بالاستقراء أن كثيرين من المعتقلين استفادوا في معتزلاتهم وأفادوا حتى أن المجرمين منهم انتفعوا بما عملوه في سجونهم وأفادوا العالم به، وما ألفت قول ديكنز: "إن العظيم بين الناس من كان عظيماً في شقائه وعظيماً في سجنه وعظيماً في قيوده" وقول الآخر: "من عوائقنا تتولد قوتنا" فلذلك تظهر مواهب كثيرين من المسجونين من وراء جدران سجونهم فيكون التضييق عليهم توسيعاً لمعارفهم، وتقلص جسومهم

تمديداً في عقولهم.

- فمن قدماء المسجونين الذي اشتغلوا في عزلتهم إرميا النبي؛ فإنه أعدّ مواد نبواته المشهورة. وبولس الرسول فإنه وضع معظم رسائله في سجنه في رومية (إيطالية). ويوحنا الأنجيلي ألف (الرؤيا) و(الرسائل الثلاث) و(الإنجيل) وهو منفي في جزيرة بطمس.

- ومن اشتغل في معتقله من العرب أبو منصور الأزهري الهروي اللغوي المتوفى سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) لأنه أسر عند إحدى قبائل البادية وهو يطوف في أحيائها لتحقيق اللغة والوقوف على لهجات العرب، فاغتنم فرصة اعتقاله واستفاد أشياء لغوية كثيرة أضافها إلى كتابه (التهذيب) مما لم يكن ليخطر له في بال في غير الاعتقال، فجاء كتابه هذا ممتعاً في أكثر من عشر مجلدات، وهو حتى الآن من أفضل المصنفات اللغوية في بابه.

- وبينما كان أبو تمام الطائي الشاعر مسافراً في بلاد العجم عاج بصديقه أبي الوفاء ابن مسلمة في همذان فأكرم مثنواً وأبقاه عنده أياماً نزل في خلالها ثلجٌ حبسه عن متابعة سفره، فغمّ وفرح ابن مسلمة ببقائه عنده فقال يسليّه: "وطنٌ نفسك على البقاء؛ إن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان". ولكي يشغله أوقفه على خزانة كتب كبيرة كانت في داره. فطالعها بتدبيرٍ ووقف فيها على النوادر والشوارد من العلوم والفنون. ولم يصرف وقته جزافاً، فجمع من مطالعته خمسة كتب في الشعر؛ منها

(الوحشيات) وهي ملاحم (قصائد طويلة) و(الحماسة) وهو مختار من أشعار العرب العرياء رتبه على عشرة أبواب أولها الحماسة فسماه بها. وقيل إن أبا تمام في اختياره لهذه الأشعار أشعر منه في شعره. وبقي (الحماسة) في خزائن آل مسلمة يضمنون به حتى تغيرت أحوالهم، فحمله أبو العوادل الدينوري إلى أصبهان فأقبل عليه الأدباء وكان من أشهر الكتب المصنفة في معناه، ومن أفضلها؛ لأنه من المخاديم (أي الكتب التي خدمت بالشرح والتعليق).

- ولما اعتقل ابن خلدون المؤرخ الشهير وضع كثيراً من أفكاره ورسائله لمؤلفاته المشهورة.

- ولما سجن أبو إسحاق إبراهيم الصابئ الكاتب المعروف قال عضد الدولة بن بويه: "إن أراد الصابئ الخروج من سجنه فليصنف مصنفاً في أخبار آل بويه" فصنف الصابئ الكتاب (التاجي) وتأنق فيه حتى نمي إلى عضد الدولة أن صديقاً دخل عليه يوماً فرآه مكباً على عمله تسويداً وتبييضاً فسأله عما يشتغل؟ فقال الصابئ: "أباطيل أمّتها وأكاذيب أئمتها" فأوغر هذا الكلام صدر الملك عليه حتى أمر بقتله تحت أرجل الفيلة، ثم شفع به أصحابه فاستبدل ذلك بنفيه.

- وهكذا فعل الشيخ الرئيس ابن سينا في معتقله بقلعة فردجان فإنه صنف فيها كتاب (الهدايات) و(رسالة حي بن يقظان) و(رسالة القولنج) وغيرها.

- ولما سجن المهدي العباس نديمه إبراهيم الموصللي لإدمانه الخمر اغتتم هذه الفرصة وتعلم القراءة والكتابة.

- وكذلك فعل أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي الأندلسي فإنه ألف في سجنه لما اعتقله الملك الأفضل في مصر كتباً ورسائل ؛ منها (رسالة العمل في الإسطربلاب) و(كتاب الوجيز في علم الهيئة) و(كتاب الأدوية المفردة) و(تقويم الذهن) في المنطق و(الانتصار في الرد على علي ابن رضوان) في رده على حنين بن إسحاق في مسائله. وتفوق في الطب.

- والشيخ أحمد بن تيمية الشهير سجن مدة في مصر ثم في قلعة دمشق وابتلي بالمحنة ولم يغير معتقده واشتغل بالتصنيف، فوضع مؤلفات ورسائل منها (تعاليق على تفسير القرآن) أوضح فيها ما التبس على طائفة من المفسرين، وألف في المسألة التي حبس لأجلها مجلدات عديدة. ولما منعوه عن الكتابة وحجزوا عنه القلم والدواة والقرطاس كان يكتب بالفحم على بعض الآنية ونحوها.

وما زال في محنته صابراً على بلواه إلى أن توفي في السجن سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧م) فرثاه ابن الوردي مشيراً إلى طول سجنه بقوله :

وحبس الدر في الأصداف فخر وعند الشيخ بالسجن اغتباط

بآل الهاشمي له اقتداء فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا

- وهذا الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي المشهور بأدابه سجن في دمشق سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) فألف في معتقله (تغريد الصادح) وهو منتزَع من (كتاب الصادح والباغم) وقد صدره بأبيات منها :

ألفها ابن حجة للنجبا لأن فيها رأس مال الأدبا
واختارها من مفردات الصادح فكان ذا من أكبر المصالح
من كل بيتٍ إن تمثلت به سكنت من سامعه في قلبه

- وألف الشيخ بدر الدين محمد بن إسرائيل بن عبد العزيز الشهير باسم ابن قاضي سماونه المتوفى سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) وهو مسجون في ازنيق (كتاب لطائف الإشارات) في الفقه ووضع عليه شرحاً باسم (التسهيل) والكتابان مشهوران بين الفقهاء.

- وإسحاق بن خلف المعروف بابن الطيب تعلم نظم الشعر في سجنه واشتهر به حتى مدح الملوك وتوفي سنة ٢٣٠هـ (٨٤٤م).

- وألف أبو الوليد بن زيدون الأندلسي رسالة في سجنه يستعطف بها أمير مصره واشتهرت حتى شرحها صلاح الدين الصفدي شرحاً بديعاً.

- ووضع أحمد بن يحيى بن المرتضي المهدي لدين الله المتوفى سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م) في سجنه بصنعاء اليمن كتاب (الأزهار في فقه الأئمة الأخيار) وشرحه شرحاً مطولاً اسمه (الغيث المدرار) وشرحه كثيرون

غيره، ومنه نسخة في برلين

- ولما سجن الأمير زين الدين بن علي البحتري في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد في مصر كتب سيرة عنترة بخطه الجميل.

- ولما استودع البطريك مكاربوس بن الزعيم الحلبي الأرثوذكسي هو وولده الأرشدياكون بولس في قلعة كالومينا بسبب الطاعون عند ذهابهما من رومانية إلى روسية وضع هو وولده بعض المؤلفات منها تاريخ أمراء تلك البلاد وحوادثها؛ مثل تاريخ الملك باسيلوس ملك البغدان وحربه مع عدوه، ونسخ ولده الأناجيل الأربعة.

- وياقوت الحموي انتفع في أسره كثيراً لأنه برع بتحصيل العلوم ووضع التآليف المهمة أخصها "معجم البلدان" و"معجم الأدباء".

- ومصلح الدين السعدي الشيرازي الشاعر المشهور في بلاد فارس لما أسر في حرب الصليبيين وضع مفكرات لبعض كتبه منها (الكلكستان) المشهور.

- وهكذا كان الحال مع الإفرنج، فقد حركت قرائح كثير من علمائهم في سجونهم فألفوا الكتب المفيدة من متقدمين ومتأخرين، ومن مشاهير المتأخرين ديدرو الفرنسي من أشهر كتاب القرن الثامن عشر فإنه جمع في سجنه (دائرة المعارف) الفرنسية وساعده بعض أصدقائه في توسيعها فجمع القسم الرياضي منها دالمبير وطبعت من سنة ١٧٥١ - ١٧٧٢م في ثمانية وعشرين مجلداً. وعنها أخذت الأمم الأخرى (دوائر

معارفها)

- وفولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير سجن في الباستيل لهجائه
لويس الرابع عشر بقصيدة، فنظم في سجنه قصيدة (ليج) أي التعاهد،
ورواية (اوديبوس) ويقال إنها من أحسن ما كتبه من حيث شرح
العواطف الحقيقية وذلك سنة ١٧١٨م ثم أطلق سراحه.
- والفيلسوف باكن الإنكليزي بقي في السجن زهاء ست عشرة
سنة وكتب فيه أجمل مؤلفاته المتداولة وفيها أحسن أفكاره الفلسفية .
- واندره شينيه الفرنسي (١٧٦٢-١٧٩٤م) نظم في سجنه
قصيدته (الفتاة الأسيرة) وهي من مشهورات القصائد الإفرنجية.
- وسلفيو باليكو الإيطالي كتب في سجنه بعض مؤلفاته. ومثله
جيلبر وكلفان ونظم طاسو الشاعر الإيطالي الشهير في معتقله كل يوم
خمسمائة بيت من الشعر الحماسي المشهور.
- وقضى ميخائيل دانت الزعيم الأيرلندي سبع سنوات في سجنه
درس في أثنائها ما لا تلقنه المدارس فخرج منه سنة ١٨٧٨م وهو مستعد
لتأليف المشاريع الوطنية ولإنشاء جريدة.
- والشاعر الفياري الإيطالي نظم في سجنه كثيراً من القصائد
والمقاطع: وكان نابليون بونابرت في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة يكتب
(مذكراته) انيومية ويملي على كتاب كثيرين في وقت واحد، وربما أحيا
ليه وإذا رأهم قد تعبوا وملوا عزّاهم بقوله: "إنه يترك لهم حق نشر ما

كتبوه فيكون ربحهم منه كثيراً".

- ولما حبس المستر وليم ستيد صاحب مجلة المجلات الإنكليزية لمجهرته بمسألة الرقيق الأبيض سنة ١٨٨٥م كان اعتقاله نافخاً فيه روح النهضة الأدبية التي ستمت ذروة المجد العلمي والصحافي.

- ونظم دانتي الشاعر الإيطالي المعروف ملحمته (المضحكة الإلهية) التي يقال إنها أشبه برسالة الغفران للمعري في منفاه فكانت آية البلاغة اللاتينية.

- وسجن لص إيطالي زهاء ثلاثين عاماً كتب فيه قصصاً غريبة مفيدة تنافس بنشرها الصحافيون ودفعوا له ثمنها أموالاً كثيرة.

- وسجنت امرأة نمسوية مجرية لتحريضها عشيقها على ارتكاب جريمة قتل فألفت في سجنها روايات غرامية كثيرة نشرت في كتب ربحت منها أموالاً طائلة.

- وأما الاختراع في السجن فهو مشهور أيضاً لأن كثيراً من المجرمين المشهورين بإخلاقهم إلى البطالة تراهم يتعلمون العمل وينزعون إلى الاستنباط وهم في سجونهم، ونعرف كثيراً منهم في سجون بلادهم الأميركية قد اخترعوا أشياء درت عليهم الأموال. فإن أحدهم في سجن أريزونا أوجد آلة تولد الكهرباء من الهواء بدل الماء. فأطلق الحاكم سراحه وسار إلى واشنطن فنال امتيازاً باختراعه فأفاد وأستفاد.

- وآخر في ولاية أوهايو كان ملماً بعلم الكهرباء فاخترع في

سجنه عجلة كهربائية لكنس الشوارع فكوفئ براتب سنوي .
 - وآخر أوجد زراً جديداً للطرز للأطواق استفاد به أموالاً جزيلة .
 - ورجل غيره اخترع آلة توضع في المخايط (مكنات الخياطة)
 فتغنيها عن بكرة الخيطان والمحواك (المكوك) الذي في أسفلها فقدمت له
 إحدى الشركات النيويوركية عشرين ألف ليرة إنكليزية ثمن اختراعه
 الذي استعملته في معاملها .

- ورسم مجرم إيطالي على جدران سجنه رسوم ألعاب رياضية
 بديعة فأخذ تخطيطها مطبعي وطبعها فربح ربحاً عظيماً منها .
 - ولم يفت العرب مثل ذلك فإن أحد الأندلسيين عمل في سجنه
 مصوراً (خارطة) أو مخططاً فيه شيء عن أميركا حفره على خشب ولا
 يزال هذا الأثر النفيس في مدينة البندقية يزين متحفها ويدل على حذق
 العرب في الصناعات .

فلهذا نجد أن المصائب هي محك الرجال ، حتى قال كاتب أميركي
 بهذا المعنى : "إن من أهم الذرائع الدافعة للإنسان إلى النجاح الفقر
 والتعب والصعوبة فلا تخف منها لأنها أفضل وسيلة لإحراز النجاح .
 وكثيراً ما رأينا الذين يعرضون عن هذه الذرائع يخسرون شبيبتهم !"
 وقال المعري :

يؤدبك الدهر بالحدائث إذا كان شيخاك ما أقبا

وقال ابن بابك :

فإن عجمتي نيوب الخطوب وأوهى الزمان قوى مُنتي
فما اضطرب السيف من خيفة ولا أرعد الرمح من قرّة
وقال المعري وأجاد :

ولما أن تجهمني مرادي جريت مع الزمان كما أرادا
وهونت الخطوب عليّ حتى كأني صرت أمتحها الودادا

وقال الشيخ ناصيف اليازجي :

تعطي التجارب حكمة مجرب حتى تربي فوق تربية الأب

٤ أقوال الأدباء في المسجونين والمعتقلين :

قال كثير من الشعراء في أصحابهم المعتقلين والمسجونين يسلونهم ،
وفي بعض أقوالهم من موارد الحكم ونواجع المنظومات ما يستحق أن
ينشر في هذه المقالة.

مثل قول أبي الشغب العبسي في خالد القسري^(١) لما أسر وسجن :
ألا إن خير الناس حياً وهالكاً أسير ثقيف عندهم في السلاسل

(١) سجنه يوسف بن عمر الثقفي وقتله بعصر قدميه بين خشبتين حتى انقصفتا ثم إلى
وركيه، وصلبه حتى قصف، وكان قتله سنة ١٢٦هـ (٧٤٣م).

لعمري لئن عمّرتم السجن وأوطأتموه وطأة المتشاغل
لقد كان يبني المكرمات لقومه ويعطي اللهى في كل حق وباطل
فإن تسجنوا القسري لا تسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه في القبائل

- وكتب البحترى إلى أبي سعيد صاحبه وكان معتقلاً في السجن :
جعلنا فداك الدهر ليس بمنفك من الحادث المشكو والنازل المشكى
وما هذه الأيام إلا منازل فممن منزل رحب إلى منزل ضنك
وقد هذبتك النائبات وإنما صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك
وما أنت بالمهزوز جاشأ على الأذى ولا المتفري الجلديتين على الدعك
على أنه قد ضيم في حبسك الهدى وأضحى بك الإسلام في قبضة الشرك
أما في رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوساً على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك

- وكتب البستي إلى صاحبه وقد اعتقل :

فديتك يا روح المكارم والعلى بأنفس ما عندي من الروح والنفس
حبست فمن بعد الكسوف تبلج تضيء به الآفاق كالبدر والشمس
فلا تعتقد للحبس همأً ووحشة فقبلك قدماً كان يوسف في الحبس

- ونظم أبو المكارم بن أجروم يسلي ابن مرزوق لما سجن بعد قتل

السلطان أبي سالم:

يا شمس علم أفلت بعدما أضاءت المشرق والمغربا
حجبت قسراً عن عيون الورى والشمس لا ينكر أن تحجبا

-وكتب صاحب للأمير أبي العباس الهكاري المعروف بابن

المشطوب إلى الملك الأشرف معتقله في قلعة حرّان (دوبيت) :

يا من بدوام سعده دار فلك ما أنت من الملوك بل أنت ملك
ملوكك ابن المشطوب في السجن هلك أطلقه فإن الأمر لله ولك^(١)

-وكتب إليه أحد الأدباء في سجنه :

يا أحمد ما زلت عماد الدين يا أشجع من أمسك رمحاً بيدين
لا تأس إذا حصلت في سجنهم ها يوسف قد أقام في السجن سنين

- وقال ابن خروف ...

أقاضي المسلمين حكمت حكماً عدا وجه الزمان به عبوساً
حبست على الدراهم ذا جمال ولم تحبسه إذ سلب النفوسا

- وقال ابن سناء الملك ...

بنفسي الذي لم يضربوه لريبة ولكن ليبدو الورد في سائر الغصن

(١) الأمر لله وحده ؛ ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ . (س)

ولم يودعوه السجن إلا مخافةً من العين أن تعدو على ذلك الحسن

وقالوا له شاركت في الحسن يوسفاً فشاركه أيضاً في الدخول إلى السجن

-وحبس الحاجُ يزيدُ بن المهلب على مائة ألف درهم خراجاً

تأخر عليه فجمعت له وهو في السجن، فزاره الفرزدق الشاعر وقال

للحاجب: استأذن لي عليه. فقال له: إنه في مكان لا يمكن الدخول

عليه فيه. فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعاً لما هو فيه ولم آت ممتدحاً.

فأذن له فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقت خراسانُ بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيد؟

فما قطرت في الشرق بعدك قطرة ولا اخضر بالمرين بعدك عودُ

وما لسرير بعد بعدك بهجة وما لجوادٍ بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف درهم ونحن نصبر على

ظلم الحاج، فبلغت هذه الحاج فأطلق سراحه وقال: نحن لا ندع

يزيد يكون أكرم منا.

- وقال بعضهم في الشيخ الرئيس ابن سينا لما سجن:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال وفي السجن مات أخس الممات

فلم يشف ما نابه (بالشفا) ولم ينج من موته (بالنجاة)

٥- تمثل السجناء بأقوال غيرهم في سجونهم:

- روى أبو العتاهية أن رفيقاً له في حبسه تمثل بقول الشاعر:

تعودت من الضر حتى ألفتَه وأسلمني حسنُ الغزاء إلى الصبر

وصيرني يأسِي من الله راجياً لحسن صنيع الله من حيث لا أدري

فانتحلهما أبو العتاهية وزاد فيهما:

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما تكرهت منه طال عتبي على الدهر

- وكان الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ينشد وهو في سجنه

هذه الأبيات لصالح بن عبد القدوس قالها في حبسه، وقيل إنها لعلي بن

الخليل وكان هو وصالح يتهمان بالزندقة فحبسهما الخليفة المهدي بن

المنصور وهي:

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى ففي يده كشف المضرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ولا نحن في الأموات فيها ولا الأحياء

إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

إلى كثير مما تمثلوا به مما لا فائدة من الإطالة فيه.

٦- أقوال المسجونين والمعتقلين من أدباء المشرق:

- كان عدي بن زيد العبادي أول من كتب بالعربية في ديوان

الأكاسرة وهو ترجمانهم فحبسه النعمان بن المنذر اللخمي في مطبق

(سجن مظلم) بعد أن زوجه ابنته. فكتب إليه عدي من سجنه يقول:

ألا من مبلغ النعمان عني وقد هوى النصيحة بالمغيب
أحظي كان سلسلة وقيداً وغلا والبيان لدى الطيب
أتاك بأنني قد طال حبسي ولم تسأم بمسجونٍ حريب
وييتي مقفراً إلا نساء أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عديّ كشنّ خانة خرز الريب
فهل لك أن تدارك ما لدينا ولا تغلب على الرأي المصيب
فإني قد وكلت اليوم أمري إلى رب قريبٍ مستجيب

ولما لم يطلق الملك النعمان سراحه كتب عديّ إلى شقيقه أبيّ الذي

كان في مجلس كسرى:

وتقول العداة أودى عديّ وبنوه قد أيقنوا بعلاق
يا أبا مسهرٍ فأبلغ رسولاً إخوتي إن أتيت صحن العراق
أبلغا عامراً وأبلغ أخاه أنني موثق شديد وثاقي
في حديد مضاعف وغلّالٍ وثياب منضحات خلاق
فاركبوا في الحرام فكوا أخاكم إن عيراً تجهزت لانطلاقي

فتوسط كسرى أمره مع النعمان ليطلقه ولكنه قتله لو شاية سمعها

عليه. ومن شعره في السجن أيضاً قوله وهو آخر ما قاله قبل قتله:

أبلغ النعمان عني مالكاً
لو بغير الماء حلقي شرقاً
وعدايتي شمتت أعجبهم
لامرئ لم يبل مني سقطة
فلئن دهرتولى خيره
ربما منه قضينا حاجة
أنه قد طال حبسي وانتظاري
كنت كالغصان بالماء اعتصاري
أنني غيبت عنهم في إساري
إن أصابته ملمات العثار
وجرت بالنحس لي منه الجواري
وحياة المرء كالشيء المعار

- وقال الممزق العبدي يخاطب ملكاً قد أسره :

أحقاً أبيت اللعن أن ابن فرتنا
فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل
على غير إجرامٍ بريقي مُشرقي
وإلا فادركني ولما أمزق

- وتغنى عبد يغوث بن وقاص فارس بني الحارث وهو أسير في

يوم الكلاب الثاني قبل قتله :

وقد علمت عرسي مليكة أني
وكننت إذا ما الخيل شتمها القنا
وعادية سوم الجراد وزعتها
أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيداً
وإن تحربوني تحربوني بمالياً
أنا الليث معدواً عليه وعادياً
لسيقاً بتصرف القنا بنانيا
بكفي وقد أنخوا علي العواليا
فإن أحاكم لم يكن من بوائيا

- وسجن الإمام عمر بن الخطاب الحطية الشاعر الهجاء تخلصاً
من قوارص كلامه ولواذع هجائه باستعداد الزبرقان بن بدر، فوضعه في
بئر وألقى عليه غطاء، فكتب إليه من معتقله يستعطفه:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسيهم في قعر مظلمة فارحم عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألفت إليك مقاليد النهي البشر
لم يؤثروك بها إذ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

فأطلق عمر سراحه على شرط كف لسانه عن الهجاء .

- واعتقل عامل الحجاج على اليمامة الشاعر جحدر بن مالك
العجلي من قبيلة ربيعة فقال في معتقله:

لقدماً هاجني فازددت شوقاً بكاءً حمامتين تغردان
تجاوبتا بلحن أعجمي على غصنين من غرب وبان
فقلت لصاحبي وكنت أحزو ببعض القول ماذا تحزوان
فقالا الدار جامعة قريباً فقلت وأنتما متمنيان
فكان البان أن بانة سليمي وفي الغرب اغترابٌ غير دان
إذا جاوزتما نخلات حَجْر وأندية اليمامة فأنعياني

وقولا جحدرٌ أمسى رهيناً يعالج وقع مصقولٍ يماني
 كذا المغرور بالدنيا سيردى وتهلكه المطامع والأماني
 ولما وصل إلى الحجاج وسجنه أرسل عليه أسداً ليصارعه فجنده
 بقوله:

يا جمل إنك لو رأيت كريهتي في يوم هيح مسدِفٍ وعجاج
 وتقدمي لليث أرسف موثقاً كيما أكابره على الإحراج
 جهمٌ كأن جيئنه لما بدا طبق الرحي متعجر الأثباج
 يسمو بناظرتين تحسب فيهما لما أجاهلها شعاع سراج
 فكأنما خيبت عليه عباءةً برقاء أو قطع من الدياتج
 قرنان مختصران قد مخضتهما أم المنية غير ذات نتاج
 فقلقت هامته فخر كأنه أطمٌ تساقط مائل الأبراج
 ثم اثنت وفي ثيابي شاهدٌ مما جرى من شاحب الأوداج
 أيقنت أني ذو حفاظ ماجد من نسل أملاك ذوي أتواج
 ممن يغار على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

- ولجأ عبد الله بن الحجاج إلى أخيه بن خالد فسعى به إلى الوليد
 ابن عبد الملك فأخذه من داره فأتى به الوليد فحبسه. فقال من قصيدة في

سجنه :

أقول وذاك فرط الشوق مني
فما للقلب صبر يوم بانث
كأن معتقاً من أذرعَاتِ
بفيها إذ تجافيني حياءِ
لعيبي إذ نأت ظمياءً فيضي
وما للدمع يسفح من مغيضي
بمَاءِ سحابةٍ خضرٍ بضيض
بسر لاتباح به خفيض

وقال :

فإن يعرض أبو العباس عني
ويجعل عرفه يوماً لغيري
فإني ذو غنى وكريم قومٍ
ويركب بي عروضاً من عروض
ويغضني فإني من بغيض
وفي الأكفاء ذو وجه عريض

إلى أن قال :

كأني إذ فزعت إلى أخيحٍ
أوزة غيضة لفتحت كساداً
فزعت إلى مقرقة بيوض
لقتحها إذا درجت نقيضي

- وكان محمد بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم والي مكة
وخال هشام بن عبد الملك سجن الشاعر العرجي لأنه هجاه بثلاثة
أبيات، فحلف ابن المغيرة أنه لا يخرج من السجن ما دام له ولاية،
فبقي فيه سبع سنوات حتى مات، ومن أقواله في سجنه :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ليوم كريةٍ وسداد ثغر
 وخلوني ومعتك المنايا وقد شرعت أسنتهم لنحري
 كأني لم أكن فيهم وسيطاً ولم يك نسبتي في آل عمرو
 أجرر في الجوامع كل يوم ألا لله مظلمتي وهصري
 عسى الملك الحبيب لمن دعاه سينجيني فيعلم كيف شكري
 فأجزى بالكرامة أهل ودي وأجزى بالضغائن أهل ضري

- ولما نظم الفرزدق قصيدته المشهورة التي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

غضب هشام بن عبد الملك عليه وسجنه بين مكة والمدينة لأنه كان

هناك. فقال الفرزدق في سجنه:

أحبسني بين المدينة والتي إليها قلوب الناس يهوى منيها
 يقلب رأساً لم يكن رأس سيدٍ وعيناه له حولاء باد عيوبها

فلما بلغ قوله هشاماً أمر بإطلاقه .

- وكان عباد بن زياد قد سجن ابن مفرغ الحميري ثم بعث إليه أن

يبيعه الأراكة (وهي قينة لابن مفرغ) ويرداً (وهو غلام له أيضاً)، فأبى،

فأخذهما منه قسراً فقال فيهما:

شريت برداً ولو ملكت صفقته
 لو لا الدعي ولولا ما تعرض لي
 يا برد مامسنا (برد) أضر بنا
 أما (الأراك) فكانت من محارمنا
 كانت لنا جنة كنا نعيش بها
 يا ليتني قبل ما ناب الزمان به
 قد خاننا زمن لم نخش عشرته
 لا متني النفس في (برد) فقلت لها
 كم من نعيم أصبنا من لذاته
 لما تطلبت في بيع له رشداً
 من الحوادث ما فارقته أبداً
 من قبل هذي ولا بعنا له ولداً
 عيشاً لذيذاً وكانت جنة رغداً
 نغنى بها إن خشينا الذل والنكدا
 أهلي لقيت على عدوانه الأسداء
 ما يأمن اليوم أم من ذا يعيش غداً
 لا تهلكي إثر (برد) هكذا كمدا
 قلنا له إذ تولى ليته خلداً

فأخرج من السجن ، ثم بالغ في هجاء عباد ، فرد إلى الحبس ونظم فيه قصائد قال من إحداها :

وأطلتم مع العقوبة سجناً
 يغسل الماء ما صنعت وقولي
 لو قبلت الفداء أو رمت مالي
 فكم السجن أو متى إرسالي
 راسخ منك في العظام البوالي
 قلت خذه فداء نفسي مالي

ثم توسط أمره ، فلما خرج من السجن قربت إليه بغلة من بغال البريد فامتطأها وقال :

عدس ما لعباد عليك إماراً نجوت وهذا تحملين طليق
 فإن الذي نجا من الكرب بعدما تلاحم في درب عليك مضيق
 أتاك بجمخام فأنجاك فالحقي بأرضك لا تحبس عليك طريق
 لعمرى لقد أنجاك من هوة إمام وحبل للأنام وثيق
 سأشكر ما أوليت من حسن نعمة ومثلي بشكر المنعمين حقيق

- وقال جعفر بن محمية الحارثي وهو مسجون بمكة من أبيات :

هواي مع الركب اليمانين مصعد جنيباً وجثماني بمكة موثق
 عجبت لمسراها وأنى تخلصت إليّ وباب السجن دوي مغلق

- وقيل لما سجن الخليفة الأمين العباسي نديمه أبا نواس كتب إليه

من السجن :

بك أستجير من الردى متعوذاً من سطو باسك
 وحياة رأسك لا أعود لمثلها وحياة رأسك^(١)
 من ذا يكون أبانوا سك إن قتلت أبانوسك

- وقال إبراهيم بن المدبر وهو محبوس :

تسلى ليس طول الحبس عازراً وفيه لنا من الله اختيار

(١) الخلف بغير الله لا يجوز. (س)

فلولا الحبس ما بلي اصطباراً ولولا الليل ما عُرف النهار
وما الأيام إلا معقبات ولا السلطان إلا مستعارُ
سيفرج ما ترين إلى قليل مقدره وإن طال الإسارُ

وله في حبسه أشعار كثيرة ؛ مثل قوله من قصيدة :

هو الحبس ما فيه عليّ غضاضة وهل كان في حبس الخليفة من عار
ألست ترين الخمر يظهر حسنها وبهجتها بالحبس في الطين والقار
وما أنا إلا كالجواد يصونه مقومه للسبق في طيّ مضمار
أو الدرة الزهراء في قعر لجة فلا تجتلي إلا بهول وأخطار

- ولما وُشي بالشيخ الرئيس ابن سينا وسجن في قلعة فردجان
أربعة أشهر أنشأ في سجنه قصيدة قال فيها :

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

- ولما اعتقل أحمد بن المدير غلاماً لأحمد بن طولون أرسله إليه
من مصر وضيق عليه ، كتب إليه رقعة ودفعها إلى من كان يتولى خدمته
وأمره أن لا يدفعها إلا في يد ابن طولون ، فأوصلها إليه . فدعا حينئذ ابن
طولون كاتبه ابن حدار الشاعر الأديب وقال له : اقرأ ، فقرأها وهي :

أريت قبيل الصبح رؤيا كأننا جميعاً على سطح ينيف بنا السطح

إذا فارس يهوي إلى السطح مقبلاً
 يلوح بالبشرى إليك مبادراً
 وقل لي فدتك النفس من كل حادث
 أما كان دون الحبس للمرء معتب
 وأخو شكة برهانه السيف والرمح
 يعقب كتاب الفتح إذ قرئ الفتح
 وإن بان بالنفس النفاسة والشح
 بتمويه واش شأنه القذف والقذح
 ويا رب جدّ قاده اللعب والمزح
 يصرّح بالبهتان تصرّيح مازح

فقال لابن حدار: أجبه. فقال: بالرضى أم بالسخط؟ فقال:

بالسخط. فقلب الرقعة وكتب في ظهرها:

أحمد كان السطح بين محمد
 متى كنت بالإخلاص لله موقناً
 ولكن أدام الله عز أميرنا
 فكم ذبحت كفاك من رب نعمة
 منيفاً ولو عاليته انخسف السطح
 فتصدق في رؤياك إذ قرئ الفتح
 ودامت له النعمى ودام له النجاح
 بلا شفرة بل تحوي الملك والسرّح
 فأصبح مما خول الله عارياً
 ومن عدلنا أن قد زويت مضيقاً
 عليك فلا عفو مرجى ولا صفح
 بأن جاء نصر الله للناس والفتح
 فلو جاءنا الناعي بنعيك جاءنا

فلما قرأها عند ذلك يشس من نفسه. وبقي مسجوناً إلى أن مات في

معتقله سنة ٢٧١هـ (٨٤٤م).

- وكان الأمير صلاح الدين قد سجن خليل بن عرّام نائب الإسكندرية لقتله الأمير بركة، ثم أمر بإخراجه من سجنه وتسميره على الجمل عرياناً بعد جلده فأنشد:

لـك قـلبي تحـلّه فدـمي لـم تحـلّه
لـك مـن قلبي المـكان فـلـم لا تحـلّه
قـال إن كـنت مالـكاً فـلي الأـمر كلـه

فقطعه ممالك الأمير بركة إرباً إرباً

- وسجن المهدي العباسي أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالنديم الموصللي لإدمانه الشرب. فقال في سجنه:

ألا طال ليلى أراعي النجوم أعـالج في الساق كـبلاً ثـقيلاً
بدار الهوان وشر الديار أسـام بـها الخـسف صـبراً جـمياً
كثير الأخلاء عند الرخاء فـلـما حـبست أـراهم قـليلاً
لطول بلائي مل الصديق فـلا يـأمنن خـليلٌ خـليلاً

فأخبر سلم الخاسر أبا العتاهية بذلك فأنشده:

سلم يا سلم ليس دونك سر حـبس المـوصللي فـالعـيش مر
ما استطاب اللذات قد غاب في المطب قـق رأس اللذات في الناس حر

ترك الموصلي مَنْ خلق الله جمي - عاً وعيشهم مقشعر
 حبس اللهو والسرور فما في الأبر - ض شيءٌ يلهى به ويسر
 - ولما كان الشيخ أحمد بن تيمية مسجوناً في قلعة دمشق قيل إنه

نظم على لسان الفقراء المجردين هذه الأبيات :

والله ما فقرنا اختيَارٌ وإثماً فقرنا اضطرار
 جماعة كلنا كسالى وأكلنا مال له عيار
 تسمع منا إذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار

- ولما سجن أبو إسحاق إبراهيم الصابئ الكاتب المعروف نظم في
 اعتقاله أشعاراً بليغة نشر طائفة منها الثعالبي في يتيمة الدهر؛ منها قوله
 من قصيدة :

يعيرني بالحبس من لو يحله حلولي لطالت واشمخرت مراكبه
 ورب طليق أطلق الذل رقه ومعتقل عان وقد عز جانبه
 وإني لقرن الدهر يوماً تنوبني سطاء ويوماً تنجلي بي نوائبه
 ومن مد نحو النجم كيما يناله يداً كيدي لاقته أيدٍ تجاذبه
 ولا بد للساعي إلى نيل غاية من مجد من ساعٍ تدب عقاربه
 وإني وإن أودت بمالي نكبة نظيري فيها كل قرم أناسه

كذلك مثلي نفسه رأس ماله
وللمال آفات يُهَنَأُ ربه
ومن يكن السلطان فيها خصيمه
ولي بين أقلامي ولي ومنطقي
وقوله من قصيدة أخرى:
يا أيها الرؤساء دعوة خادمٍ
أيجوز في حكم المروءة عندكم
أنسيتم كتباً شحنت فصولها
ورسائلاً نفذت إلى أطرافكم
يهتز سامعهن من طرب كما
بها يدرك الريح الذي هو طاله
بها إن تخطته إليه مصائبه
فلا عار في الغصب الذي هو غاصبه
غنى قلما يشكو الخصاصة
أوفت رسائله على التعديد
حبسي وطول تهددي ووعيدي
بفصول دُرِّ عنكم منضود
عبد الحميد بمن غير حميد
هز النديم سماع صوت العود

وقيل إن من جملة الأسباب التي حملت على إطلاق سراحه من سجنه أن الصاحب بن عباد دخل على عضد الدولة في همدان وهو مكب على دفتر يقرأه فقال: يا أبا القاسم هذه رسالة لك في بعض فتوحنا نحن نأخذها بأسيافاً وأنت تحملها بأقلامك. فقال الصاحب: المعنى مستفاد من مولانا وإن كانت الألفاظ لخادمه. ثم أنشد:

وأنت أكتب مني في الفتح وما
تجري مجياً إلى شأوي ولا أمدني

فسأله : لمن البيت؟ . فقال : لعبدك أبي إسحاق الصابئ. وكان
سجيناً. فأمر بإطلاق سراحه وخلع عليه. هكذا روى بعضهم :
وقيل إن من جملة أسباب إطلاقه من سجنه قوله من قصيدة لأبي
الفرج البيغاء منها :

وأنستني في محبسي بزيارة شفت كمدأ من صاحب لك قد خلص
ولكنها كانت كحسوة طائرٍ فواقاً كما يستفرص السارق الفرص
وأحسبك استوحشت من ضيق محبسي وأوجست خوفاً من تذكرك القفص
كذا الكرز اللماح ينجو بنفسه إذا عاين الإشراك تنصب للقفص

- ولما اعتقل ابن عطية القضاعي كتب من سجنه :

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحي
فها أنا في ليل من السخط حائرٍ ولا أهتدي حتى أرى للرضى صباحا

- ولما أسر الروم أبا فراس الحمداني نظم معظم ديوانه في مأسره ،

فمنه ما كتب به إلى أخيه أبي العشائر من أبيات :

نفس النوم عن عيني خيالٌ مُسَلِّمٍ تأوب من أسماء والركب نوم
وخطب من الأيام أنساني الهوى وأحلى مذاق الموت والموت علقم
ووالله ما شببت إلا علالة ومن نارٍ غير الحب قلبي يضرم

فمن مبلغ عيني الحسين ألوكةً
 لذيذ الكرى حتى أراك محرّم
 وأترك أن أبكي عليك تطيراً
 وأظهر للأعداء فيك جلادةً
 وما أغربت فيك الليالي وإنما
 طوارق خطب ما تغب وفودها
 فما عرفتني غير ما أنا عارف

ومن بديع ذلك قوله :

إرث لصب بك قد زدته
 قد عدم الدنيا ولذاهما
 فهو أسير الجسم في بلدة
 على بلايا أسره أسرا
 لكنه ما عدم الصبرا
 وهو أسير القلب في أخرى

وكتب إلى سيف الدولة ابن عمه يستفديه من قسيده :

فإن تفتدوني تفتدوا شرف العلى
 يدافع عن أعراضكم بلسانه
 وأسرع عوادٍ إليهم معود
 ويضرب عنكم بالحسام المهند

(١) قال الثعالبي في بيتمة الدهر : لم يسمع أحسن من هذا البيت في التفعج بمنكوب

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طوبى لنجاد السيف رحب المقلد

وكتب إلى والدته يشكو إليها جراحه :

مصابي جليل والعزاء جميل وظني أن الله سوف يزيل

جراح تمامها الأساءة مخافة وسقمان بادٍ فيهما ودخيل

وأسر أقاسيه وليل نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول

تطول به الساعات وهي قصيرة وفي كل دهر لا يسرك طول

تناساني الأصحاب إلا عصابة ستلحق بالأخرى غداً وتحول

وسمع مرة حمامة تنوح على شجرة عالية قرب معتقله فقال :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتي هل تشعرين بجالي

معاذ الهوى ما ذقت طارقة الهوى ولا خطرت منك الهموم بيال

أتحمل محزون الفؤاد قوادم على غصن نائي المسافة عالي

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

تعالي تري روحاً لديّ ضعيفة تردد في جسم يعذب بال

أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سال

لقد كنت أولى منك بالدمع مقلّة ولكن دمعي في الحوادث غال

- ولما امتحن إبراهيم بن عبد الرحمن السؤالاتي صبر على

امتحانه صبراً لم يعهد مثله وقال :

تصبر ففي الأواء قد يحمد الصبر
وإن السذي أبلى هو العون فانتدب
وثق بالذي أعطى ولا تك جازعاً
فلا نعم تبقى ولا نقم ولا
تقلب هذا الأمر ليس بدائم
ولولا صروف الدهر لم يعرف الحر
جميل الرضى يبقى لك الذكر والإصر
فليس بحزم أن يروعك الضر
يدوم كلا الحالين عسرٌ ولا يسر
لديه مع الأيام حلوه ولا مر

-ولما عزل إبراهيم بن العباس الصولي عن الأهواز في أيام محمد بن عبد الملك الزيات اعتقل بها وأوذي. وكان محمد صديقه قبل الوزارة وكان يؤمل منه أن يسامحه ويطلق سراحه فكتب إليه :

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب
تكون عن الأهواز داري بنجوة
وإني لأرجو بعد هذا محمداً
ولكن مقادير جرت وأمور
لأفضل ما يرجو أخ ووزير
وسلط أعداء وخاب نصير

فأقام محمد على قصده ، وتكشفوا الإساءة إليه حتى بلغ منه كل مكروه وانفرجت الحال بينهما على ذلك ، فهجاه إبراهيم هجاءً كثيراً .

-وكتب إدريس بن يزيد النابلسي إلى الحسن بن يوسف اليزيدي لما

حجبه :

سأترككم حتى يلين حجابكم
على أنه لا بد أن سيلين

خذوا حذرکم من نوبة الدهر إنما وإن لم تكن حانت فسوف تحين

فلما قرأ البيتين رده وقضى حاجته .

- ولما حبس أبو علي محمد بن علي بن الحسين المعروف بابن مقلة الخطاط المشهور وجذمت يده وجز لسانه ذاق في السجن ألوان العذاب فوصف آلامه بأشعار كثيرة منها قوله :

ما سئمت الحياة لكن توثقت بايمافهم فسبانت يميني

بعث ديني لهم بدنياي حتى حرموني دنياهم بعد دين

ولقد حطت ما استطعت بجهدني حفظ أرواحهم فما حفظوني

ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتي بانتي يميني فبيني

ومن ذلك قوله :

لست ذا زلة إذا عضني الدهر رولا شامخاً إذا أتاني

أنا ناراً في مرتقى نفس الحاسد ماء جارٍ مع الإخوان

وقوله بعد خروجه من معتقله :

تخالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا

يا أيها المعرضون عني عودوا فقد عاود الزمان

- ولما حبس هارون الرشيد أبا العتاهية لتمنعه عن نظم شيء في

الغزل ومضى عليه زمن في سجنه دخل عليه يوماً مخارق وأخذ عنه هذه

الأبيات التي قالها في السجن متشوقاً إلى امرأته وهي :

من لقلبٍ متيمٍ مشتاق	شفه شوقه وطول الفراق
طال شوقي إلى قعيدة بيتي	ليت شعري فهل لنا من تلاق
هي حظي قد اقتصرت عليها	من ذوات العقود والأطواق
جمع الله عاجلاً بك شلي	عن قريب وفكني من وثاقي

فسار مخارق بهذه الأبيات إلى إبراهيم الموصلي فصنع فيها لحناً ودخل به على الرشيد، فكان أول صوتٍ غناه إياه في ذلك المجلس، وسأله: لمن الشعر والغناء؟ فقال إبراهيم: أما الغناء فلي وأما الشعر فلا سيرك أبي العتاهية. فقال الرشيد: أوقد فعل؟ فقال إبراهيم: نعم. فدعا به الرشيد. ثم قال لمسروق الخادم: كم ضربنا أبا العتاهية. قال: ستين. فأمر له بستين ألف درهم وخلع عليه وأطلقه.

- وقال أبو الحسن علي بن الجهم القرشي في حبسه لما سخط عليه

المتوكل :

قالوا حبستَ فقلت ليس بضائري	حبسي وأي مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله	كبراً وأوباش السباع تصيد
والشمس لولا أنها محجوبة	عسنا نظريك لما أضاء الفرقد
والبدر يدركه السرار فتجلي	أنواره وكأنه يتجدد

والغيث يحصره الغمام فما يرى
والزراعية لا يقيم كعوبها
والنار في أحجارها مخبوءة
والحبس ما لم تغشه لدنيئة
بعث يجدد للكريم كرامة
كم من عليل قد تخطاه الردى
مهلاً فإن اليوم يعقبه غدٌ

فكان قوله سبباً في العفو عنه.

- وقال ابن ممتي في سجنه:

وضاق عليّ السجن حتى كأنني
فيما ليتني كالدمع في جفن عاشق

- وكتب أبو دلامة إلى المهدي العباسي لما سجنه مع الدجاج

لسُكره:

أمير المؤمنين فدتك نفسي
أقاد إلى السجون بغير ذنب
ولسو معهم حبست لهان هذا
علام حبستني وخرقت ساجي
كأني بعض عمال الخراج
ولكنني حبست مع الدجاج

دجاجات يطوف بمن ديك ينادي بالصياح إذا يناجي
وقد كانت تخبرني ذنوبي بأي من عذابك غير ناج
على أي وإن لاقيت شراً تخيرك بعد ذاك الشر راج
فأطلقه ووصله وخلع عليه .

- وقال الأمير أبو وائل الحمداني لما أسره المبرقع :

يا خليلي أسعداني فقد عيل طباري على احتمال البلية
غربة قارظية وغرام عامري ومحنة علويه

- وكان الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك تقي الدين عمر ابن شهنشاه قد حبس زكي الدين بن عبدالرحمن العوفي لأبيات قالها فيه أوغرت صدره عليه. فقال له : ما ذنبي إليك؟ فقال : قولك "وحسبنا الله ونعم الوكيل" في بيتيك وهما :

إن الذي أعطوه لي جملةً قد استردوه قليلاً قليلاً
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا "وحسبنا الله ونعم الوكيل"

وذلك لأنه كان قد أجازته بألف دينار أنفقها في سفره معه. فأمر الملك المظفر بخنقه ، فلما أحس بذلك قال :

أعطيتني الألف تعظيماً وتكرمةً يا ليت شعري أم أعطيتني ديني

- وكان أبو الطيب المتنبي قد حبس بداعي قيامه بالدعوة فقال

قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أيما خدد الله ورد الحدود
وقد قدود الحسان القدود
ومنها^(١) :

أمالك رقي ومن شأنه
هبات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء
والموت مني كجبل الوريد
دعوتك لما براني البلى
وأوهن رجلي ثقل الحديد
ومنها :

وقد كان مشيهما في النعال
فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل
فها أنا في محفل من قرود
تعجل فيَّ وجوب الحدود
وحدي قبل وجود السجود

وكتب المتنبي أيضاً من سجنه إلى صديق أنفذ إليه مبرةً :

أهون بطول الثواء والتلف
والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك بي
والجوع يرضي الأسود بالجيف
كن أيها السجن كيف شئت فقد
وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكاني فيك منقصةً
لم يكن الدر ساكن الصدف

(١) هذا الدعاء لا يجوز إلا لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه. (س)

-ولما اعتقل حسام الدين الحاجري الإربلي الشاعر في قلعة إربل
منقولاً من سجنه في قلعة خفتيد قال في اعتقاله من أبيات :
قيلاً أكابده وسجن ضيق يا رب شاب من الهموم المفرق
إلى أن قال :

يا برق إن جئت الديار ياربيل وعلا عليك من التداي روتق
بلغ تحية نازح حسراته أبداً بأذيال الصبا تتعلق
قل يا حبيب لك الفداء أسيركم من كل مشتاق إليكم أشوق
والله ما سرت الصبا نجديةً إلا وكدت بدمع عيني أغرق
كيف السبيل إلى اللقاء ودونه شماء شاهقة وباب مغلق
وقال أيضاً :

أحبابنا أي داع بالبعاد دعا وأي خطب دهانا منه تفريق
لا كان دهر رمانا بالفراق فقد أضحى له في صميم القلب تمزيق
كانت تضيق بي الدنيا بغيبكم فكيف سجن ومن عاداته الضيق

وقال الحاجري من قصيدة أخرى :

الصعو يرتع في الرياض وإنما حبس الهزار لأنه يتروم

-ولما سجن الحكم بن عبدل الأسدي الكوفي الشاعر الأعرج مع

صديقه الأعمى أبي عليّة ونظر إلى عصاه ملقية في جنب عصا أبي عليّة
ضحك وقال:

حبسي وحبس أبي عليّة	من أعاجيب الزمان
أعمى يقاد ومقعد	لا الرجل منه ولا اليدان
هذا بلا بصر هنا	ك وبى يخب الحاملان
يا من يرى ضب الفلا	ة قرين حوت في مكان
طرفي وطرف أبي عليّة	ه دهرنا يتوافقان
من يفتخر بجواده	فجوادنا عكازتان
طرفان لا عرفاهما	يُشرى ولا يتصاهلان

- وكان الشاعر ابن القطان البغدادي قد هجا جلال الدين الزينبي
بقصيدته الكافية التي مطلعها:

يا أخي الشرط أملك لست للثالب أترك

وهي مائة وثمانية وعشرون بيتاً. فسير إليه الزينبي أحد غلمانه
فأحضره بين يديه وصفعه وحبسه. فلما طال حبسه كتب إلى مجد الدين
بن الصاحب أستاذ دار الخليفة أبياتاً يقول فيها:

إليك أظل مجد الدين أشكو بلاء حل لست له مطيقاً

وقوماً بلغوا عني محالاً
 إلى قاضي القضاة الندب سيقا
 فأحضرني بباب الحكم خصم
 غليظ جرني كما وزيقا
 وأخفق نعله بالصفع رأسي
 إلى أن أوجس القلب الخفوقا
 على الخصم الإداء وقد صفعنا
 إلى أن ما تهدينا الطربقا
 فيا مولاي هب ذا الإفك حقاً
 أيحبس بعد ما استوفى الحقوقا

ولما خرج من السجن أنشد :

عندي الذي طرّف بي أنه
 قد غض من قدري وآذاني
 فالحبس ما غير لي خاطراً
 والصفع ما لين آذاني

- وكان الملك الكامل قد سجن صلاح الدين الإربلي فأرسل إليه

بهذا الدوبيت :

ما أمر تجنيك على الصب خفي
 أفنيت زماني بالأسى والأسف
 ما ذا غضب بقدر ذنبي ولقد
 بالغت وما أردت إلا تلفي

فأطلق سراحه .

- ولما نفى السلطان صلاح الدين الأيوبي الشهير أبا المحاسن شرف

الدين محمد بن عنين الأنصاري من دمشق لوقوعه في الناس ولا سيما
 رؤساء دمشق موطنه، وذلك بنظم قصيدة (مقراض الأعراض) في

هجائهم قال وهو خارج من دمشق إلى اليمن :

فعلام أبعدمم أختة لم يقترف ذنباً ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفي كل من صدقا

-ولما مات صلاح الدين وملك العادل دمشق سار إلى دمشق
وكتب إلى العادل يستأذنه في الدخول إلى مسقط رأسه ووصف منفاه
بقصيدة مطلعها:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سأمحوني في الكرى

ثم قال منها مشيراً إلى النفي :

فارقتها لا عن رضى وهجرتها لا عن قلى ورحلت لا متخيراً
أسعى لرزق في البلاد مشتتاً ومن العجائب أن يكون مقترأً
وأصون وجه مدائح متقنعاً وأكف ذيل مطامعي متستراً

ثم قال منها يشكو الخربة ومشقاتها :

أشكو إليك نوى تمادى عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهراً
لا عيشتي تصفو ولا رسم الهوى يعفو ولا جفني يصفحه الكرى
أضحى عن الأحوى المريع محولاً وأبيت عن ورد النمير منفراً
ومن العجائب أن يقيل بظلكم كل الورى ونبتت وحدي بالعرأ

فلما وقف عليها الملك العادل أذن له بالدخول إلى دمشق، فلما

دخلها قال:

هجوت الأكابر في جلقٍ ورعت الوضيع بسب الرفيع
وأخرجت منها ولكنني رجعت على رغم أنف الجميع

-ولما اعتقل ابن خلدون المؤرخ الشهير في سجن ملك المغرب نظم له ابن خلدون وهو مريض في سجنه ملحمة نحو مائتي بيت يستعطفه فيها؛ منها قوله في مطلعها:

على أي حال لليالي أعاتب وأي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أي على القرب نازح وأي على دعوى شهودي ذائب
وأي على حكم الحوادث نازل تسالني طوراً وطوراً تحارب

فسر بها السلطان وكان في تلمسان، فوعده أنه متى حل بفاس حل أسره، ولكنه مات بعد خمسة أيام من وصوله إليها!

-وخرج تميم بن جميل الخارجي على المعتصم، وجيء به إليه أسيراً، فأدخل عليه في يوم موكب وقد جلس المعتصم للناس مجلساً عاماً ودعا بالسيف والنطع، فلما مثل بين يديه نظر إليه المعتصم فأعجبه شكله وقده ورآه يمشي إلى الموت غير مكترث له. فأطال الفكرة فيه ثم استنطقه لينظر في عقله وبلاغته، فقال: يا تميم إن كان لك عذر فأت به. فقال: "أما إذا أذن أمير المؤمنين -جبر الله به صدع ألدن ولم شعث

المسلمين وأحمد شهاب الباطل وأنار سبل الحق - فالذنوب يا أمير
المؤمنين تحرس الألسن وتصدع الأفئدة. وأيم الله لقد عظمت الجريمة
وانقطعت الحجّة وساء الظن ولم يبق إلا العفو وهو الأليق بشيمك
الطاهرة : ثم أنشد:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً	يلاحظني من حيث لا أتلفت
وأكثر ظني أنك اليوم قاتلي	وأى امرئ مما قضى الله يُفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذرٍ وحجةٍ	وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت وأنني	لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم	وأكبادهم من حسرة تنفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم	وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا
وإن عشت عاشوا سالمين بغبطة	أزود الردى عنهم وإن مت موتوا
وكم قائل لا يبعد الله داره	وآخر جدلان يسر ويشمت

قال: فبكى المعتصم وقال: إن من البيان لسحراً. ثم قال: كاد
والله يا تميم أن يسبق السيف العذل. وقد وهبتك لله ولصبيتك. وأعطاه
خمسين ألف درهم.

-ولما توفي الوزير عون الدين بن هبيرة اعتقل الديوان العزيز
جماعة من أصحابه وفي جملتهم عماد الدين الكاتب الأصبهاني

المعروف بابن أخي العزيز، فكتب من سجنه إلى عماد الدين بن عضد الدين بن رئيس الرؤساء أستاذ الدار المستنجدية إذ ذاك في شعبان سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) من قصيدة:

قل للإمام علام حبس وليكم أولوا جميلكم جميل ولائه
أو ليس إذ حبس الغمام وليه خلى أبوك سبيله بدعائه^(١)
فأمر بإطلاقه .

-ولما اعتقل المتوكل الخليفة العباسي وزيره محمد بن الزيات زاره أحمد الأحول فرآه مكبلاً بالحديد، فقال له: يعز علي ما أرى. فقال ابن الزيات:

سل ديار الحي من غيرها وعفاها ومحامنظرها
وهي الدنيا إذا ما أقبلت صيرت معروفها منكرها

(١) أشار إلى قضية العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم مع عمر بن الخطاب لما انقطع الغيث في زمن خلافته وأحملت الأرض فخرج للاستسقاء ومعه العباس والناس. فلما وقف للدعاء قال: اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسلنا إليك بتينا فتسقيننا وإنا توسل إليك اليوم بعم نبينا فاسقنا، فسقوا. (قلت: ومعلوم أن توسل عمر إنما كان بدعاء العباس رضي الله عنهما، كما بين ذلك علماء أهل السنة. انظر: "قاعدة في الوسيلة" لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٦١، تحقيق الشيخ علي الشبل. (س).

إنما الدنيا كظل زائل نحمد الله الذي قدرها

فرماه الخليفة في تنور، فلما دخل فيه قال له خادمه: يا سيدي قد صرت إلى ما صرت إليه وليس لك حامد؟ فقال: وما نفع البرامكة صنعهم؟ فقال له: ذكرك لهم هذه الساعة. فقال: صدقت وقيل إنه قال للمتوكل وهو في التنور: يا أمير المؤمنين ارحمني. فقال له: الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول الناس. فطلب دواة وبطاقة، فأحضرتا إليه فكتب:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تريك العين في النوم
لا تجز عن رويداً إنها دولٌ دنيا تنقل من قوم إلى قوم

وسير الأبيات إليه. فاشتغل عنها. ولم يقف عليها إلا في الغد. فلما قرأها أمر بإخراجه، فجاءوا إليه فوجدوه ميتاً، وذلك سنة ٢٣٣هـ (٨٤٧م) وكان قد مضى عليه في التنور أربعين يوماً، وكتب قبل موته على جانب التنور بالفحم قوله:

من له عهد بنوم يرشد الصب إليه
رحم الله رحيماً دل عيني عليه
سهرت عيني ونامت عين من هنت لديه

٧- أقوال المسجونين من أدباء المغرب والأندلس :

ذلك في المشرق، أما في المغرب والأندلس فقد قال الأدباء أقوالاً ليست بأقل من تلك بلاغة وممن نذكره منهم أبو بكر بن أبي العلاء الشاطبي الأندلسي، فإنه لما أيقن بالموت في سجنه كتب على الحائط بالفحم هذه الأبيات :

ألا درى الصيد من قومي الصناديد	أني أسير بدار الهون مقصود
لا أبسط الخطو إلا ظل يقبضه	كبل كما التفت الحيات معقود
وقد تألب أقوام لسفك دمي	لا يعرف الفضل مغناهم ولا الجود

-وكتب أبو محمد عبد الله في معذرة إلى بعض أصحابه من الأسر في طليطلة :

لو كنت حيث تجيبي	لأذاب قلبك ما أقول
يكفيك مني أني	لا أستقل من الكبول
وإذا أردت رسالة	لكم فما ألقى رسول

.....

.....

حال الزمان ولم أزل	مذ كنت أعهده يحول
--------------------	-------------------

-وقال أبو الوليد بن زيدون في سجنه يخاطب ابن جهور :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمر
 ولا استطلت زمام الليل من أسف
 يا ليت ذاك السواد الجون متصل
 جمعت معنى الهوى في لحظ طرفك لي
 لا يهنأ الشامت المرتاح ناظره
 هل الرياح بتختم الأرض عاصفة
 إن طال في السجن إيداعي فلا عجب
 وإن يثبط أبا الحزم الرضى قدر
 من لم أزل من تدانيه على ثقة
 إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر
 إلا على ليلة مرت مع القصر
 قد استعار سواد القلب والبصر
 إن الحوار لمفهوم من الحور
 أني معنى الأماي ضائع الخطر
 أم الكسوف لغير الشمس والقمر
 قد يودع الجفن حد الصارم الذكر
 عن كشف ضيري فلا عتب على القدر
 ولم أبت من تجنيه على حذر

- وقال أبو عبد الله محمد بن رشيق القلعي الغرناطي وهو مسجون

بدار الأشراف في أشيلية:

ليس عندي من الهموم حديث
 أتراني أكون للدهر عوناً
 غمرة ثم تنجلي فكأنى
 كلما ساءني الزمان سررت
 فإذا مسني بضر ضجرت
 عند إقلاع همها ما ضررت

- ولما اعتقل عز الدولة أبو مروان عبد الله بن حمادح كتب إلى أبيه

المتعصم يقول:

أبعد السنن والمعالي خمول
 ومن بعدما كنت حراً عزيزاً
 حللت رسولاً بغرناطة
 وثقفت إذ جئتها مرسلأً
 فقدت (المرية) أكرم بها
 فما للوصول إليها سبيل

فأجابه أبوه من أبيات بقوله :

عزیز علي ونوحی دلیل
 وقطعت البيض إغمادها
 لئن كنتُ يعقوب في حزنه
 على ما أقاسي ودمعي يسيل
 وشقت بنود وناحت طبول
 ويوسف أنت فصبر جميل

- وقال أبو عبد الله بن الحداد الوادي أشي الأندلسي لما فر من المرية

وحبس أخوه بها :

الدهر لا ينفك من حدثانه
 وعلمت أن السعد ليس بمنجح
 والمرء منقاد لحكم زمانه
 ما لا يكون السعد من أعوانه
 والجد دون الجد ليس بنافع
 والرمح لا يمضي بغير سنانه

فلما بلغت أبياته المعتصم قال: "شعره أعقل منه صدق فإنه لا

يتيها له صلاح عيش إلا بأخيه وهو منه بمنزلة السنن من الرمح" ثم أمر

بإطلاقه ولحاقه به.

- وقال أبو زكريا يحيى بن هذيل الأندلسي في معتقله من قصيدة

طويلة بليغة:

تباعده عني منزل وحبيب	وهاج اشتياقي والمزار قريب
وإني على قرب الحبيب مع النوى	يكاد إذا اشتد الأئين يجيب
لقد بعدت عني ديار قريبة	عجبت لجار الجنب وهو غريب
أعاشر أقواماً تقر نفوسهم	فللهم فيها عند ذاك ضروب
إذا شعروا من جارهم بتأوه	أجابته منهم زفرة ونحيب
فلا ذاك يشكو هام هذا تأسفاً	لكل امرئ مما دهاه نصيب
كأني في غاب الليوث مسالم	يروعي منه الغداة وثوب
أيا دهر إني قد سئمت تهدفي	أجرني فإن السهم منك مصيب
إذا خفق البرق الطروق أجابه	فؤادي ودمع المقلتين سكوب
وإن طلع الكف الخضيب سحيرةً	فدمعي بحناء الدماء خضيب
تذكرني الأسحار داراً ألفتها	فيشتد حزني والحمام طروب
إذا علقت نفسي بليت وربما	تكاد تفيض أو تكاد تذوب
دعوتك ربي والدعاء ضراعة	وأنت تناجي بالدعاء فتجيب

لئن كان عقبي الصبر فوزاً وغبطة فإني على الصبر الجميل دروب

-ومن أشهر الذين نظموا في معتقلهم المعتمد بن عباد ملك

الأندلس الذي خلع وسجن؛ فمن أقواله في قيوده وقد آلمته :

تبدلت من ظل عز البنود بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدي سناناً ذليلاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد

فقد صار ذاك وذا أدهماً يعض بساقي عض الأسود

ولما ثقف بالحديد قال من أبيات :

قيدي أما تعلمني مسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم إلا عظما

يصرني فيك أبو هاشم فينثني القلب وقد هشما

ولما فك أهل فاس من سجن (أغمات) ودخلوا لوداعه قال

يخاطبهم :

أما لانسكاب الدمع في الخد راحة لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد

هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى بما منه قد عافاكم الصمد الفرد

تخلصتم من سجن (أغمات) والتوت علي قيود لم يحن فكها بعد

من الدهم أما خلقها فأساور تلوى وأما الأيد والبطش فالأسد

فهنيتم النعما ودامت لكلكم
خرجتم جماعات وخلفت واحداً
سعادته إن كان قد خانني سعد
ولله في أمري وأمركم الحمد

ومر به سرب قطاً فقال متذكراً بناته :

سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولكن حيناً أن شكلي لها شكل
وجميع ولا عينا يكيهما ثكل
ولا ذاق منها البعد عن أهلها
إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل
وصفت التي في جبلة الخلق من قبل
سواي يحب العيش في ساقه كبل
فإن فراخي خافها الماء والظل
بكيث إلى سرب القطا إذ مررن
ولم تك والله المعيد حسادةً
فأسرح لا شملي صديق ولا الحشى
هنيئاً لها إذ لم يفرق جميعها
وإذ لم تبت مثلي تطير قلوبها
وما ذاك مما يعتز به وإنما
لنفسى أن ألقى الحمام تشوّف
ألا عصم الله القطا في فراخها

وأشده أبو بكر الداني قصائد في حبسه ؛ منها قصيدة بليغة أشار

فيها إلى انفكاك قيوده وقد أجاد ما شاءت بلاغته قال منها :

قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت
عجبت لأن لان الحديد وقد تسوا
قيودك منهم بالموكارم أرحما
لقد كان منهم بالسريرة أعلما
ويؤويك من آوى المسيح بن مريما
سينجيك من نجي من الجب يوسفاً

وسمع ابن حمديس الصقلي بعض أبيات المعتمد في اعتقاله فأجابه
قائلاً :

أتيأس من يوم يناقض أمسه وشهب الدراري في البروج تدور
ولما رحلت بالندی في أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسير

- ولما حبس المنصور بن أبي عامر المعافري حاجبه جعفر بن عثمان

المصحفي كتب إليه من السجن يستعطفه بقوله :

هني أسأت فأين العفو والكرم إذ قادي نحوك الإذعان والندم
يا خير من مدت الأيدي إليه أما ترثي لشيخ رماه عندك القلم^(١)
بالغت في الخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فراجعه المنصور بقوله :

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم تبغي التكرم لما فاتك الكرم
أغریت بي ملكاً لولا تثبته ما جاز لي عنده نطق ولا كلم
فايأس من العيش إذ قد صرت في طبق إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا
نفسی إذا سخطت لیست براضية ولو تشفع فيك العرب والعجم

(١) خير من مدت له الأيدي هو الله - سبحانه وتعالى - . (س)

-وأمر المنصور بتكبير فتى انتهب مال الخزينة وحمله إلى السجن
وحض الضابط على امتحانه والشدة عليه ، فلما قام أنشأ يقول :

أواه أواه وكـم ذا أرى أكثر من تـكرار أواه
ما لامرئ حول ولا قوة الحـول والقـوة لله

فقال المنصور: ردوه. فلما رد قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل
قلت. فقال: حلوا عنه كبله ، فلما حل عنه أنشأ يقول:

أما ترى عفو أبي عامر لا بد أن يتبعه مـنة
كذلك الله إذا ما عفا عن عبده أدخله الجنة

فأمر بإطلاقه وسوغه ذلك المال وأبرأه من التبعة فيه !

-واعقل المنصور أيضاً الوزير الكاتب أبا مروان عبد الملك بن
إدريس الخولاني ، فمن قوله في معتقله :

يأوى إليه كل أعور ناعقٍ وقب فيه كل ريح صرصرٍ
ويكاد من يرقى إليه مرةً من عمره يشكو انقطاع الأهر
وقوله أيضاً:

شحط المزار فلا مزار ونافرت عيني الهجوع فلا خيال يعترى
أزرى بصبري وهو مشدود العرى والآن عودي وهو صلب المكسر
وطوى سروري كله وتلذذي بالعيش طي صحيفة لم تنشر

ها إنما ألقى الحبيب توهماً
بضمير تذكاري وعين تذكري
عجباً لقلبي يوم راعتني النوى
ودنا وداع كيف لم يتفطر
-وسجن المنصور أيضاً الشاعر أبا عبد الله محمد بن مسعود

الغساني في مطبق مع الطليق القرشي وهو غلام وسيم فقال:

غدوت في السجن خدناً لابن يعقوب
وكنت أحسب هذا في التكاذيب
راقبت عدائي تعذيباً وما شعرت
إن الذي فعلوه ضد تعذيبي
راموا بعادي عن الدنيا وزخرفها
فكان ذلك إدنائي وتقربي
لم يعلموا أن سجني لا أبا لهم
قد كان غاية مأمولي ومرغوبي

ثم أفضى الأمر بينهما إلى أن هجاه بقوله:

ولي جليس قربه مني
وبعد الأمان كذبا عني
قد قذيت من لحظه مقلتي
وقرحت من لفظه أذني
هون لي في السجن من قربه
أشد في السجن من السجن
لو أن خلقت كان ضداً له
زاد على يوسف في الحسن
إذا ارتقى فكري في وجهه
سلط أبطيه على ذهني
كأنما يجلس من ذا وذا
بين كنيقين من التن

وقال يخاطب المنصور من السجن:

دعوت لما عيل صبري فهل يسمع دعواي المليك الحليم
 مولاي مولاي ألا عطفة تذهب عني بالعذاب الأليم
 إن كنت أضمرت الذي زخرفوا عني فدعني للقدير الرحيم
 فعنده نزاعة للشوى وعنده الفردوس ذات النعيم

-وقال ابن مرزوق في نكبته بتلمسان قصيدة استهلها بقوله:

رفعت أموري لباري النسم وموجدنا بعد سبق العدم

٨ - أقوال المعاصرين وأعمالهم في سجونهم حتى أول الحرب العامة:

لقد مر في الكلام السابق أقوال المشاهير وأعمالهم في سجونهم
 ومعتقاتهم وبقي الكلام عنهم في هذا العصر وهاك ما اتصلت إليه يد
 البحث عنهم

-لما سجن أحمد باشا الجزائر والي عكا الشاعر الحمصي مخايل

البحري سنة ١٧٨٨م نظم في سجنه قصائد لم يحضرنا منها شيء الآن

-وكان الشيخ محمد الهلالي الحموي قد شكاه رجلان اسمهما

(برهان وحسن) من أعضاء مجالس حماه فسجن فيها وكتب إلى

متصرفها من سجنه يقول مورياً:

أنا لست أول طائرٍ في حيز القفص انسجن

وهلال فضل عنه قد
عميت عيون ذوي الفطن
في بدلة عمياء في
أعيانها انقلب الزمن
بلدّ به (البرهان) خاف
والقبيح بها (حسن)

- وقال أديب بك إسحاق لما سجن في الإسكندرية سنة ١٨٨٢م
ملماً بقول ابن عنين الدمشقي الذي مرّ كلامه في أثناء المقالة^(١) :

لئن حبست بلا ذنب ولا حرج
فما يراعي إلى غير الهدى انطلقا
ولي فؤاد أمين قد صفا ووفى
ولي لسانٌ بمحض الحق قد نطقا
ما للمؤذن لم يسجن بأرضكم
إن كان يسجن فيها كل من صدقا

- ولما نفي المرحوم محمود سامي باشا البارودي إلى جزيرة سيلان
مع عرابي باشا بقي في منفاه سبعة عشر عاماً فذاق العذاب ألواناً وأبدى
جلداً حملة على تعلم اللغة الإنكليزية وتعريب بعض الكتب عنها.
وكان مع كل ذلك يمرّن قريحته في النظم والنثر فكاتب كثيراً من
أصدقائه، ومن أبلغ ما قرأت له نونيته المشهورة التي قال في مطلعها :

محا البين ما أبقت عيون المهى مني
فشبت ولم أقض اللبانة من سني
عناءً ويأس واشتياق وغربة
ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن

(١) وهذا قوله: فعلام أبعدتم أخا ثقة

لم يقترف ذنباً ولا سرقا
إن كان ينفي كل من صدقا
انفوا المؤذن من بلادكم

فإن ألكُ فارقت الديارَ فلي بها فؤادٌ أضلته عيون المهى عني

إلى أن قال :

فيا قلب صبراً إن جزعت فربما جرت سنحاً طير الحوادث باليمن
فقد تورق الأغصان بعد ذبولها ويبدو ضياءُ البدر في ظلمة الوهن

ومنها :

تحملت خوف المنّ كل رزية وحمل رزايا الدهر أحلى من المن
وعاشرت أخذاناً فلما بلوهم تمنيت أن أبقى وحيداً بلا خدن

ومن بليغ قوله هذه المقطوعة :

يا ذكّرة أبصرتُ في مرآتها صور التمني
علقت حباله خاطري فيها بمكحولٍ أغن

ومن رشيق أقواله في قصيدة :

ألفتُ الضنى ألف السهاد فإن سرى بي البرق غالتني لذاك الغوائل
من العار أن يرضى الفتى غير طبعه وأن يصحب الإنسان من لا يشاكل

ولما نمت إليه البشارة بالعفو عنه سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) وقع بين

الشك واليقين فقال :

أحس في نفسي ديب المنى وألمح الشبهة في خاطري

-ولما نفى السلطان عبد الحميد العثماني ولي الدين بك يكن إلى بر الأناضول لبث هناك سبع سنوات يتجشم فيها أعباء المشاق ولما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨م عاد إلى الأستانة فمصر وله في سجنه مؤلفات وتعاليق وأشعار بديعة طبع بعضها، ومن غرائب ما جرى له في السجن أن بعضهم أشار إليه أن يكتب ورقة إلى ناظر الضابطة ليشفع له عند السلطان فيفرج عنه فكتب إلى ذلك الصديق :

شهد الله ما تذلت يوماً لنوالٍ أو رفعة أو مقام
غير أن الزمان يأتي بقوم يستطيون ذل نسل الكرام

ومما نظمه في الحنين إلى مصر قوله من قصيدة يخاطبها بها :

علم الزمان قلاه ليس يذلني فسعى يحاول ذلتي بقلاك
ولئن حييتُ على نواك فإنما أحيالاً مالي بأن ألقاك
وأرى كبيرات الخطوب صغيرة وأرى هلاكِي لا أخاف هلاكِي
وتخاذل الأنصار عني زادني حولاً فجدت مع الزمان عراكي
زادت تباريحي فزدت تطرباً وشكا سواي فعبت وجد الشاكي
لو أن من شدوا قيودي حاولوا يوماً فكاكي ما رضيت فكاكي
قد سرك الدهر العجيب وساءني فضحكت أنت وبنتٌ وحدي الباكي

أهـاك بعدي بالجديد من المنى يا ليت أهاني كما أهـاك

ومن قوله وهو سائر إلى سيواس :

أيها الـركب سر فإن أمامي لبعاداً مرّاً وعيشاً أمراً
غربة هذه وقد كنت أدري أن سأرمي بها لدن كنت حراً
فالفحي يا رواسي الأرض ناراً وأفوضى فداقد الأرض بحراً
وانفحي يا ربح الشمال سموماً واقدفي يا سوائر الأفق صخرأ
أنا أرضى بذا لب بلادي وأرى في سيلها الموت فخرأ

ومن رشيق نظمه قوله من قصيدة بديعة :

فؤاد دأبه الذكـرُ وعين ملؤها عبـرُ
ونفس في شـيبتها وجسم مسه الكبر
وآمال مضيعةً ووقتٌ كله هدرُ
وعيش عذبه مـضـض وعمر صفوه كدر
أما يا ليل من صبح لمن سهروا فينتظروا
جفون الناس هاجعة وجفني ضافه السهرُ
إذا سُورَ تولت منـ لك عني أقلت سورُ
أفانيها فتنيني وأطويها فتنشـر

ومنها :

سأقضي العمر في أسرٍ ويسعد بعد من أسروا
أرى سـيواس تغمدني كأني صارم ذكرُ
صدأت بها وأحسبني سأصدأ ما جرى العمرُ
أبخذلني وإخـواني وينصر خصمنا القدرُ^(١)

-وسجن إبراهيم بن بطرس كرامه الحمصي الأصل في جزيرة مدللي (مدلين) فوضع ذيلاً لديوان والده بطرس كرامه شاعر الأمير بشير الشهابي الكبير حاكم لبنان ونظم هو أشعاراً منها :

ألا يا بارقاً أهدي سلامي وأشواقني لمن هجري استباحه
وحدثه بأي ذبت شوقاً وأن السين أكسبني وشاحه

-ولما نفى الشيخ محمد عبده الشهير إلى سورية على أثر حوادث عرابي باشا في مصر شرح في منفاه (نهج البلاغة) و(مقامات البديع الهمداني) ووضع بعض المقالات واستنسخ كثيراً من الكتب منها كتاب (البصائر النصيرية) في المنطق .

-ولما فرّ رزق الله حسون إلى أوربة كان يتردد إلى أمهات العواصم

(١) لا يجوز الاعتراض على قدر الله. ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾. والقدر لا يخاصم أحداً ﴿ما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. (س)

بين إنكلترا وفرنسة وروسية. فأنشأ جريدة (مرآة الأحوال) سنة ١٨٥٤م وسبك حروف المطابع المعروفة هناك وأصلحها بخطة الجميل ووضع رسالة في الطباعة والحروف العربية. وأنشأ مجلة (رجوم وغساق) ومجلة (حل المسألتين الشرقية والمصرية) وطبع (أشعر الشعر) الذي نظمه من أسفار القدماء في التوراة. وكتاب (النفثات). وغيرها من الكتب الكثيرة. وله في اعتقاله قصائد ومقاطع كلها عواطف تنمُّ عن حنينه إلى وطنه وأسرته منها قوله في ولده ألبير:

ألبير إني لمن وجدني ومن كلفني
 وهل ترى نافعي روح تعذبني
 لولا رجائي بربي ألتقيك لما
 أبيت ذا لوعةٍ في الروح تبقيها
 وكل يوم أليم الين يفنيها
 رغبتي في العيش والدنيا وأهلها

وقوله في ولده هذا وابنتيه :

أحسبني ميتاً إذا لا أرى
 لكنني من لوعتي لم أزل
 بجاني ألبير ماري وروز
 محترقاً كالحَيِّ ناراً يجوز

وقوله في اعتقاله من قصيدة :

في السجن واليَمِّ أو القفر أو
 ولست أدري بعد ذا ما الذي
 هيهات أن يرقد ذو لوعةٍ
 فوق بريد بتُّ مذ ربع عام
 يجره لي خوض موتٍ زؤام
 وجداً وذو خوفٍ من الانتقام

-وسجن جبرائيل عبد الله الدلال الحلبي لأنه نظم قصيدة (العرش والبيكل) التي مطلعها :

جاءت بآيات غدت تهذي بها زعمت وجود الحق في تهذيبها

ومنها :

كل الأنام وإن تباين حالها فالمال جُلُّ القصد من مطلوبها

وذلك بعد أن عزل من منصبه أيضاً فعانى المشقة سنتين في غيابات السجن وكان له في وصف حالته قصائد شائقة منها قوله في إحداها يخاطب السلطان :

فاعف عني فأنت للعفو أهل وأقل عثرتي بفك قيودي
وأعدني لحسن رأيك إني خادم صادق وخير ودود
فالوشايات والسعايات من أعداي بادي ضغائن وحقود

ومنها قوله يستبطن زيارة ابن شقيقته قسطاكي بك الحمصي :

تجاوزت في الصدّ حدّ الزيادة فلا تجعل الهجر خلقاً وعادة
فعندي إليك اشتياق شديدٌ وقلبك يشهد هذي الشهادة
وعودتني منك قريباً ووداً وما يطلب القلب إلا اعتياده
عهدتك ذا خُلقٍ جيّدٍ لذلك أطلب منك الإجابة
فإن أنت أتحفتني بالحضور فقد أدرك الخال أفضى السعادة

وتوفي .. سجيناً سنة ١٨٩٢ م .

- ونظم سليم بك عنحوري شاعر الفيحاء الشهير قصيدة مطلعها :
 القول قول أفاضل الأعماد والفعل فعل أسافل الأوغاد
 والثوب ثوب مملك ذي عزّة والنفس نفس مشعوذٍ قرّاد

إلى أن قال :

ما كل أحدب باتر لا والذي رفع الطباق السبع دون عماد
 كلا ولا كل امرئ ندعوه إبـ -راهم صار حليف دين الهادي

فوشى به بعضهم أنه يعرض بأديب بيروت إذ ذاك وكانت بينهما مناقشة سابقة. فحوكم الناظم ونقل إلى السجن فقال وهو يسير إليه مرتجلاً في مربعة ذات ثمانية أذوار منها :

تذاكرتم فأعظيتم قرارا يمهد في الجحيم لكم قرارا
 ألا تخشون إن سلب القرارا سؤال الحق في يوم الحساب
 بمحكمة قد امتلأت فسادا بها الجور التقى أهلاً فسادا
 أضاع رجالها فيها السدادا فصارت مثل محكمة الكلاب
 على القانون يبنون المضابط ويحشون الدفاتر بالضوابط
 ولكن ما لها والله رابط سوى الدينار ذي اللون الترابي

ولما دخل السجن أتمها على هذا النمط. ونظم كثيراً غيرها من القصائد التي عرفت بها قريحته الوقادة منها قوله :

ما كنتُ أول طائر مترنم	حسوه في الأقفاص للتغريد
وألوف أغربة تطير نواعباً	بين السماء وبين سطح صعيد
إن يجسوا شخصي الضئيل فخطري	في الجوّ أو في البحر أو في البيد
متجولاً متحفزاً مترعباً	بين الصوارم والطلي والغيد
لي الهمة السماء لا تثنى الظبي	عزماها عن فعل كل حميد
ما الراية البيضاء تنشرها على	طود الفخار مآثري وجدودي
والذروة القعساء تلمس راحتي	فيها السماك وطالعي بصعود
ولسوف ينضيي الزمان كمقضب	قد أغمدوه مخافة التجريد
فليهنأ مؤازري ومناصري	وليبيكين مناصبي وحسودي

وله من قصيدة أخرى عرض فيها بخصمه منها :

كن يا زمان كما تشاء فإنني	راض بما تقضي يدُ الحدثان
قاوم أثر أفن آدم قهري أطل	حبسي وضع قدري آدم أحزاني
لم تلقني والله إلا ثابِتاً	رضوى قهاب ولا يهاب جناني
مهما تقلبت الدُّننى فأنا أنا	صبري حسامي والشبات سناني
والحق يحزنه سكويتي مطرقاً	والصدق يعجبه انطلاق لساني

ولما كان الشيء بالشيء يذكر رأيت نشر شيء من قصيدة له بعنوان
(حكاية حال) وصف فيها السجن وما ينشر من الشر والخير بين
المسجونين بقوله :

طرحوه في السجن بين مئات	من رجال زعانف سفهاء
حرّضوه على ارتكاب الدنيا	والمعاصي حتى بسفك الدماء
كان قبلاً يخاف شرقة مال	أصبح اليوم أعظم الأتقياء
تلك حال السجون من ألف عام	في بلاد الجهّال والأغبياء
إنما السجن زاجر لذويه	عن فعال الطغام والأردياء
فيه علم صنائع واشتغال	يكسب المرء شيمة الأدياء
محكم الوضع متقن الصنع زاه	صالح العيش جالب للهناء
فيه كتب تهذب الخلق قسراً	فيه طب يزيل أعضل داء
فيه قوم ليرشدوا كل غار	بحديث ذي حكمة وجلاء
هكذا السجن في بلاد حباها	مالكوها ذرائع الارتقاء
لا كسجن حوى جحيم شرور	فيه تنمو نقائص الأدياء

- ولما سجن سليم أفندي سركيس سنة ١٨٩٧م في مصر أصدر
جريدته (المشير) من سجنه وأول عدد ظهر منها كان مشتملاً على
قصيدة للشيخ نجيب الحداد في وصف السجن منها قوله :

إنما السجن كالطريق يسر الوغم — — — فيه كما يسير الهمام

وهو مثل الغدير يشرب منه الذئب — ب حيناً ويشرب الضرعاً

- وسجن الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير (اللواء) في مصر وذلك سنة ١٩٠٩م فكان يكاتب جريدته وهو في سجنه .

- وحكمت المحكمة العرفية العثمانية على رضى توفيق بك فيلسوف الأتراك بالسجن خمسة عشر يوماً لأنه ألقى محاضرة دون أن يستأذن الحكومة. فكتب مقالات من سجنه قال في بعضها: "إنني أدرك أنه يجب على كل إنسان أن يحب موطنه أكثر من حبه لوالديه وأولاده وكل شيء آخر. وهكذا أنا أتفانى في حبه لأنني إلى الآن لم يدر في خلدي الاهتمام بأولادي وأسرتي، وقد غادرتهم في بيت حقير بدون معين ولا نصير. إنني أعلم أنه يجب الاجتهاد بإقناع الموطن بالحق. وإذا لم يقتنع فيجب الإذعان لأمره. وهكذا فعلت. ففضلاً عن أنني لم أدافع عن ذاتي رأيت قصاصي قليلاً. وليس هذا بقصاص بل هو سرور وهناء وليس من شأنه إلا إثارة غيرتي وتكثير حكمتي ومنفعتي". وبهذه المناسبة نذكر قصيدة بعثها إليه صديقه .. رفيق رزق سلوم الحمصي نزيل الأستانة إذ ذاك قال في مطلعها :

السجن أبلغ ما ألقىت من خطب فاخطب بنا صامتاً في عشك الذهبي
ففسى السكوت معانٍ ليس يعربها قول وما القول إلا صورة الأرب

وختمها بقوله :

فانعم بسجنك إن السجن مفتخر فذكر (سقراط) لم يرح من الكتب
وذا صديقك (غيلو) يجادلهم والأرض تمشي على مهل بلا تعب
يفديك بالروح أحرار لقد عشقوا فيك الفضيلة من ترك ومن عرب

-وسجن يوسف الحاج ورجل .. يلقب بالميسي لأنهما اتهما بتعليق

القصيدة السينية المشهورة في أسواق دمشق ومطلعها :

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس
والثاني نفي إلى جزيرة لمني وتوفي فيها وكان ذلك في عهد حمدي
باشا والي سورية .

-وسجن الشيخ أحمد النبهاني المصري الشاعر ومصطفى

السباعي الحمصي الخطاط بسبب قصيدة من نظم الأول تكرر فيها ذكر
الوطن والحرية وبقيا نحو شهرين في الاعتقال وضودرت أوراقهما .

-ولما كتب محمد بك فريد المصري المتوفى أخيراً مقدمة حماسية

لكتاب (وطنيتي) حكم عليه بالسجن نصف سنة (١٩١١م) وفي السنة
التالية خطب منتقداً أعمال الحكومة فسافر إلى الأستانة وحكم عليه
غيابياً بالسجن مدة سنة مع الأشغال الشاقة، فبقي متغيياً، واغتتم تلك
الفرصة فكتب مذكراته وتقاريره المشهورة.

-وللأمير عبد القادر الجزائري الشهير المتوفى سنة ١٨٨٨م

مؤلفات وأشعار كثيرة في اعتقاله في دمشق منفياً إليها سنة ١٨٥٦م.

-ولما نفي عرابي باشا المصري إلى جزيرة سيلان سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) وضع فيها مذكراته ولا سيما ترجمة حياته وحوادثه في مصر.
-وللسيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي آثار اجتهاد وكتب وضعها عند سجنه ومصادره .

-ولمدحت باشا مذكرات وضعها على أثر نفيه إلى الطائف في البلاد العربية .

-وهكذا كان للشيخ جمال الدين الأفغاني الذي نبا به موطنه فقضى عمره متنقلاً في أوربة والشرق ينثر درر الخطب وينظم عقود المقالات والمؤلفات في الصحف التي أنشأها .

-ولم يكن السيد عبد الله نديم المصري بأقل عناية ممن ذكر بخدمة الأدب في منفاه الذي تكرر أكثر من مرة .

-ولما أبعده إبراهيم بك المويلحي مع الخديوي إسماعيل إلى أوربة أنشأ بعض الصحف وساعد السيد الأفغاني بصحفه .

-وللشيخ أمين الجندي الحمصي قصائد ومقاطع في حبسه بليغة منها قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

عرج أخوا البأساء نحو بني العلى والشم ثرى أعتاهم متذلاً

ومنها :

نعم الخلافة في قريش أصلها وبها لقد جاء الحديث مسلسلاً

- وكذلك بطرس كرامه الحمصي أبعد عن موطنه لأسباب فكان بعده سبباً في شهرته ووضع دواوين شعرية وبعض الكتب.
- وكان محمد بيرم التونسي قد هجر تونس واشتهر في القطر المصري حيث أقام صارفاً بقية حياته ووضع مؤلفاته وكتب مقالاته الشهيرة.

- ولما كتب الشيخ جميل صدقي الزهاوي^(١) في بغداد بشأن المرأة والحجاب نكب بعزله عن منصبه وزجه في المطبق فأرسل أبياتاً إلى زوجته منها :

بمسدس يوربه أو بحسام	أبئين إن أدنى العدوّ حامي
أني اجتمعت إليك في الأحلام	فتجلدي عند الرزية واحسي
بكريمة ينموها لكرام	والصبر أجدر إن ألت نكبة
بدم له أهريق فوق رغام	أبئين إن أودى (جميلك) خابطاً
من أدمع فوق الخدود سجام	فتدري للخطب صبراً وامسحي
يرجو تقدمهم مع الأقوام	أنا لست أول هالك في قومه
يسعى لينقدهم من الأوهام	يأبي لهم هذا الجمود ولا يني

(١) له أشعار سيئة في السخرية بالدين وبالحجاب الإسلامي، وقد رد عليه العلماء في حينها.

رمت الحياة لهم وراموا مقتلي شتان بين مرامهم ومرامي^(١)
 -ولما سجن .. الشيخ اسكندر العازار منذ سنوات نظم في سجنه
 قصيدة قال فيها :

لا شيء عن طلب الإصلاح يثينا لو أن في سجنكم شابت نواصينا
 -وسجن شاعر أميركي مدة خمس سنوات لأنه اختلس دريهمات
 لقربنته وهو في حاجة إليها. فأخر أبيات قالها في سجنه لما تمثل له خيال
 امرأته ليلاً ما عربته مجلة المقتطف يخاطب زوجته :

زارني طيفها ومدت يديها	ودموعي تفيض شوقاً إليها
غير أني رأيتها كخيال	غلب الهم والعناء عليها
يا الهألم أدعه في حياتي	احفظنها فهي في النائبات
حفظت اسمك العظيم وكانت	قدوة القانتين والقانتات
احفظنها وإنني لك عبد	ولساني بحمد عدك يشدو
فمضى الطيف والسبات عراني	هل جواب الدعاء بُعد وصدّ

-ومن أغاني المسجونين في سيبيرية (روسية) ما عربته جريدة المحبة
 وهو :

(١) التقدم المنشود لا يكون إلا بالتمسك بأحكام الإسلام، خاتم الأديان. أما بغير ذلك فما
 هو إلا الضلال والفساد. (س)

ما عدت يا وطني تراني دائماً
أصبحت في المنفى وبعد معزتي
فلسوف يبكي اليوم فوق سطوحه
يسبكي وسمعي غائب عنه فيا
ترباً عليه قرنت أقدامي
صالت على جسمي يد الآلام
ويرن صوت صدهاء في الآجام
حزني وطول تعذيبي وهيامي

-ولنابليون بونابرت في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة مفكرات
ومقالات لا تزال تنمُّ عن ذكائه وصحة آرائه .

-ولما حكم المجلس الأعلى الفرنسي على المسيو بول ديرويليد
الخطيب الشهير الأفرنسي بالإقصاء عن موطنه واعتقاله سنة ١٩٠٠م
حمل إليه فرنسوا كونه شاعر بلاده علماً مزركشاً بأيدي نساء مقاطعة
(الشارنت) وأنشده قصيدة جاء من تعريبها بجزيدة (الأرز) قوله :

علق على جدران سجنك راية
غادات (شارنت) لهنّ على السهى
لما رأّت ظلمات سجنك أرسلت
علم رمزت به إلى المجد الذي
يَسندك منه السجن بعد هنيهة
قد قدست بأنامل الغادات
شرف يكلل هامة السادات
قوس السحاب يبدّد الظلمات
سجنوه مع علم على الرايات
وتقلُّ ظفراً على الهامات

إلى كثير من أمثال هذه الأقوال وفيها عظات وعبر رائعة .

٩- أقوالهم وأعمالهم في أثناء اعتقالهم بهذه الحرب العامة :

من الذين منوا بالاعتقال الطويل وتنقلوا من محل إلى آخر في نفيهم شاعر الشام الشهير الشيخ عبد الحميد الرافعي الطرابلسي ؛ فإنه سجن في دمشق بدعوى فرار ولده سمير أفندي من الجند التركي إلى الجند العربي ، ثم نفي إلى المدينة المنورة وسجن فيها مدة ، ثم أعيد إلى دمشق مسجوناً وأفرج عنه مدة ، ثم نفي إلى قرق كليسة إلى أن عاد إلى موطنه طرابلس الشام حيث يقيم الآن ، وله في معتقلاته قصائد بليغة طويلة تقتطف منها أمثلة تدل على غرضه من كل منها ؛ فمن قوله في قصيدة نظمها في سجن دمشق من قصائده الدهريات :

لئن نك لاقينا الشدايد كلها	وصالت بقرضاب علينا وسمهري
فلم ينتزعنا حادث الدهر قيمة	ولم تنأ عنا شيمة المتصبر
ولا حط من أقدارنا النفي إنما	هو الدر منظوماً كدرٍ منثر
وما نحن في تلك النوائب كلما	ذكت نارها الأكعود بمجمر
فإننا أناس لا نذل لمعتد	ولو سد عنا كل ورد ومصدر
ومهما طغى صرف الزمان وهزناً	بريح عقيم من بلاياه صرصر
نسلم للمولى الكريم أمورنا	ونرضى بما يقضيه دون تضجر
ولا نشتكى ضيماً لغير جناية	فما يرفع المقدور غير المقدر

وكم من كرام قد أصيبت مصابنا
ولكنها ملت وما زلت صابراً
وشدت عليها النائبات بخنجر
فصح بذاك الفضل للمتأخر

وقوله من قصيدة في سجن المدينة المنورة مطلعها:

ظلموني ولم أكن أهل ذنب
شتوني عن الديار وجاروا
قيدوني لكن بقيد ثقيل
حبسوني لكن وحيداً فريداً
فر ابني من جيشهم ولو أني
فاستباحوا جزاي عنه كأني
فعلی الظالمين لعنة ربي
قُتل الجائرون هم شر حزب
كل منه صبري وجسمي وقلبي
لا أنيس ولا جليس بجني
كنت أدري منعه كل درب
طفل شاةٍ قد رام إنصاف ذنب

ومنها في وصف الأتراك:

حاربونا بل حاربوا الله فيما
والتقيننا من ظلمهم ما التقاه
كل دار قد أصبحت من أذاهم
أحدثوه ما بين تركٍ وعرب
آل بيت النبي من آل حرب
(كربلا) فهي في بلاء وكره

ومنها في مخاطبة قومه:

ما لكم يا بني الكرام سكوتاً
لا تلبون والفتى من يلي

نهبوا أعين العزائم وأصغوا
لنداء من الضمائر يصبي
إلى أن قال لهم:

أفلا ترمعون بعض احتجاج
لا أقول انهضوا لجرب وضرب
إن شق العصا حرام ولكن
طلب الحق مقنع كل ندب
قد تصان الحقوق في رقة القوب
ل كما تحرس العيون بهذب

ومن لطيف ذلك قوله في حبس دمشق بعد رجوعه من المدينة
ووصفه التضييق عليه فيه:

أيأ زمن الحبس في جلق
أطلت عذابي ولم ترفق
رممتني بأعماقه أولاً
يداك ولم تك بالمشفق
وثنيت حتى دهاني البلاء
بفاقرة شبييت مفرقي
ولا سيما حين ألقىتني
وحيداً (بزندانه) الضيق
بعثت إليّ ببرغوثه
ومالي (برّ) و(غوث) بقي
وسلّطت ما شئت من قمله
عليّ ومن بقه لا بقي
وصال البعوض بخرطومه
ولا كلةً لي بها أتقي
وقد زاد طنبورها نغمة
سقوط الرتيل على نمرقي
فرقت وأشفقت من قرصها
ولو كنت في الحرب لم أفرق

وقد طال ليلي بذاك العناء
 ولما نضا الصبح سيف الضياء
 كأني في الناس أشقى شقي
 أتاني الذباب فمن أسود
 وطرفي بالنوم لم يعلق
 إذا زدت في طرده زادني
 تسابق نحوي ومن أزرق
 هجوماً وثلك بالأبلق

ثم انتقل بعد أبيات إلى السجن يخاطبه بقوله :

أغثني برفعي من ذا المكان
 ولو لسعير لظى المحرق
 وإلا إلى الشنق إن شئتم
 فغير بني العرب لم يشق

ويعد أبيات قال بلسان السجن يجيبه :

وعما قريب يكون السرى
 لقرق كليسا فلاتلق
 ستنقى إليها كما قد نفي
 سواك ومن يصطبر يلتق

ومن قوله في قصيدة يصف فيها منفاه في قرق كليسا :

ولكن الزمان له اعتداء
 رماني فاتقت بدرع صبري
 على مثلي وإن أك ما اعتديت
 وحاول أن أفر بضم نفس
 فلولا حسن مصطبري قضيت
 ومذ أعياه كسري إذ رأني
 تعز عليّ لكني أبيت
 أهاج الظالمين لقصد ذي
 كلدن كيفما شد التويت
 وهل للذل غير الحبس بيت

فذلك (منزل البلوى) إليه
 ومقبرة الحياة) فمن أتاه
 وأنكى ما يكون عليّ فيه
 وقد سماه يوسف إذ دراه
 ولكن لم أجد حبساً إليه
 فسجن كل آن في مكان
 فمن (شام) أساق إلى (حجاز)
 وطوراً نحو أرض (الروم) أزوي
 على حكم الزمان لقد أويت
 يود لو أنه يا ميّ ميت
 شمات الكاشحين بما التقيت
 (بتجربة الصديق) كما رويت
 يلود من الصحاب من اجتيت
 كأني كل ذنب قد أتيت
 وأرجع في القيود كما سريت
 وكم حبس هناك به انزويت

-وقال عمر حمد البيروتي مرتجلاً هذين البيتين لما ركب العجلة
 من عاليه إلى سدة المرقبة (المشقة) في بيروت وأودعهما صديقاً له في
 سجن عالية وأوصاه أن يحفر على ضريحه :

خطوا على قبري بني وطني
 بيتاً يردده فم الحقب
 هذا ضريح عشيق موطنه
 هذا شهيد محبة العرب

-وقال محمد أفندي صالح الصمادي الحسني النابلسي وهو سجين
 بلاد الترك من قصيدة:

ما راعني أنني أغدو صريع
 وسط السجون ومضلوباً على النصب

لم يلهني عن بني قومي وعن وطني
 إن يقبض الحر أو يبقى فإن له
 وقال من قصيدة أخرى:
 قد أوجس الأتراك منا خيفة
 فزججت في قعر السجون وما دروا
 إن كان ذنبي أن أعلم أمي
 إن يصلب الأعداء جسماً فانياً
 تبقى البلاد إذا تعهد أمرها
 وعد الطفاة وبذل المال والرتب
 ذكراً يخلد في الأسفار والكتب
 فاستحسنوا إطفاء كل منار
 أن الخابس جنة الأحرار
 فاستكثروا من هذه الأوزار
 فالروح تأوي مسكن الأبرار
 عدل ولا تبقى مع الأشرار

-ونفي شاعر دمشق الشهير سليم بك عنحوري إلى بر الأناضول من كانون الأول سنة ١٩١٧م إلى آخر شهر نيسان سنة ١٩١٩م إذ عاد إلى وطنه فمني بإحراق جميع كتبه ومؤلفاته وأوراقه المخطوطة وبينها نفائس؛ مثل (عكاظ الأدب) و(دواوينه الشعرية)، فنظم في معتقله كثيراً من القصائد والمقاطع حتى اجتمع لديه منها ثلاثة دواوين؛ أولها (فلسفة الخيال) والثاني (نهضة الشعر) والثالث (مرآة الانقلاب)، وهذا الديوان كله أوصاف رائعة للحرب وإرهاقها الجسوم وإزهاقها الأرواح. وكنا نود نشر أمثلة منها لولا تخلف جواب ناظمها عنا إلى اليوم.

-ولما كان جميل بك المعلوف معتقلاً في سجن بيروت أوقف ليلاً

فعرف أنهم سينقلونه من معتقله وتوهم أنه مأخوذ إلى المرقبة (المشقة)، فأملى قصيدة على أحد رفقاءه السجناء قائلاً له أن ينشرها أو يرسلها إلى أهله، وهذه بعض أبياتها:

يا من تعدى وانتقم	يا من تجنى واجترم
فراح يجحد للنعم	يا من ولي أمر العباد
فيها يجبر المغتحم	تخذ السياسة آلة
ئد والمطابع والقلم	أعداؤه أهل الجرا
أي حكم قد حكم	يا جاهلاً جهلت يداه
ك أو هو الحجر الأصم	أفليس ناه من ضمير
ما ترتجيه من النعم	مهلاً فلست بنائل
ر ولا تقل إني الأهم	وارجع عن الطمع الكثير

إلى أن ختمها بقوله:

دس السموم مع الدسم	يا من غدا وشؤونه
يا والبلايا والنقم	أذهب إلى حيث الرزا
وهناك أمر الشر تم	فهنالك مرجع خائن

-وقال الشيخ سعيد الكرمي النابلسي يصف سجنه في المجلس-

العرفي بعاليه بموشح طويل بليغ منه :

إنما حير فكري عجباً
والذي لفق عني الكذبا
ويلهم لم لم يخافوا العطبا
فدعا المظلوم إن جد السرى
وترى الظالم مهما استكبرا
ظلموا والله فيما حكموا
كذبوا والله فيما زعموا
ويلهم إذ أنهم ما علموا
وهو لا يبغى لظلم مظهراً
وترى الحال سريعاً غيرا
كوفهم قد جرموا مثلي بري
صليوه منذ رأوه مفترى
من سهام الليل وقت السحر
ليس ينجي منه جد الهرب
يآته المقت بأذن سبب
حين ألقوني بسجن أبدي
ليس في العالم شيء سرمدى
أن مولاي غداً معتمدى
ويفاجي أهله بالنوب
من عناء لصفاء معجب

* * * *

وتعجب للذي قد عملوا
ويلهم كم من بريء قتلوا
وعن العدل بقصد عدلوا
من فعال ذكرها ييكي الجماد
واستباحوا نهب أموال العباد
وأذاهم كل يوم بازدياد

* * * *

جعلوا فعل الدنيا متجراً وهو شر الكسب للمكتسب
لا يجلون سوى من سكرأ أو أضع الرشد في حب صبي

* * * *

ثم ساقوني إلى الفيحا دمشق لأقضي السجن في قلعته
عندما وافيتها ذقت الأشق رغم ما يؤثر من سمعتها
بين ناموس وبرغوث وبق سال مثل السيل في بقعتها

* * * *

فترى الكل يعاني السهرا من مساء لاختفاء الشهب
فلو الراحة كانت تشتري لشربناها بكل الذهب

-ولما نفي فائز بك الفصين من زعماء عشيرة الصلوت في لجا حوران ومن متخرجي مدرسة العشائر في الأستانة إلى جهات ديار بكر بعد سجنه في عاليه، وقف هناك على حوادث الأرمن فألف كتابه (المذابح في أرمينيا) وطبعه في مصر سنة ١٩١٧م (١٣٣٥هـ) في ٩٣ صفحة بقطع ربع. ولما اتصل بالجيش العربي فألف كتابه (المظالم في سوريا والعراق والحجاز) وطبعه في مصر أيضاً سنة ١٩١٨م (١٣٣٦هـ)

في ١١٧ صفحة بالقطع ذاته. ولقد ترجم كتابه الأول بالإنكليزية وطبع في لندن سنة ١٩١٧م وبالفرنسية وطبع في السنة نفسها. والكتابان يتضمنان حقائق كثيرة لأن المؤلف كان من مستخدمي حكومة الترك وواقفاً على أعمال رجالها ومطلعاً على أسرارهم .

- وكتب المرحوم رفيق رزق سلوم رسالة مطولة إلى والدته وأسرتة من سجنه في عاليه قبل رقبه (شنتقه) بأيام، جاء فيها أنه طلب أن يكتبوا على ضريحه بعد قتله الذي كان على يقين منه هذه الأبيات لبعض شعراء العرب القدماء :

وإن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي لمختلف جداً
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم	وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم	وإن هم هوروا غيبي هويت لهم رشداً
وإن زجروا طيراً بنحس قمر بي	زجرت لهم طيراً قمر بهم سعدي

- ولكثير من شهداء الوطن أقوال بديعة قبل قتلهم وعند عرضهم للقتل من منشور ومنظوم ذكرتها مفصلة في كتابي (تاريخ شهداء الوطن) المخطوط، وهو يتضمن مقدمة في نكبات المشاهير وأسباب تعرض كثيرين من المواطنين للنفي والمصادرة والسجن والرقب (الشنتق)، ثم تفصيل نكبات هذه الحرب برجالنا الشهداء وترجمة كل منهم تراجم مطولة مع رسومهم وجميع شؤونهم والإشارة إلى أسرهم وحياتهم

السياسية والعلمية، فلهذا اقتصرنا الآن على الإشارة إلى بعضها تنمة للبحث .

ومما يحسن أن نختتم به هذه المقالة منظومات بليغة للشاعر اللبناني الرائع رشيد بك نخله تخلف بعضها عني ولكنني عرفت منها بعض زجلية رشيقة ؛ منها مطلع يخاطب به من بقي في لبنان وهو منفي في القدس الشريف :

يا عين الله يساعذك ويكون معك	عاقده ما يهطل عبر من مد معك
وقال أيضاً من زجلية طويلة :	
من بعد ما ظن العدو مضناك مات	والهجر خلى جروح قلبي داميات
مر النسيم عامبسمك جاب لي معر	ريحه زباد وند ردت لي الحياة

وقال يندب لبنان ويصف نكبته بقوله من زجلية أخرى :

يا جبل لبنان الله يرحمك	ويصبر عيون الوجيعه في حماك
ويرزق بناتك ناس تحمي عرضها	صار حسنها للغير والمعار إلك
ويرزق بناتك ناس تحمي عرضها	وتصون هوادجها وتبقى بأرضها
وتجعل الموت كرمال مجدك فرضها	وبالسيف للعر القديم ترجعك
وترجعك بالسيف للعر القديم	وتحررك من كل غدار ولئيم
ومن بعد هذا أحسب بدك تنهدم	شهادة التاريخ تبقى تنفعلك

وقال من القدس بعنوان "الغد":

لغدِ يا نفس إن يأت الغد	بين موتي وحياتي موعد
أنا إما مائت لا يرتجى	أم طليق ليس تعلوني يد
حالة لا بد أن أبلغها	شاءها لي أو أباه الحسد
إن أكن حياً للبنان أنا	رغم ما يلقي الكريم المنجد
أو أكن ميتاً ففي لبنان لي	ذمة طابت وعهد جيد
وأحباءً بذكري إن شدوا	قام صداح المعالي ينشد
خسئ الحساد لا كانوا ولا	كانت النفس التي لا تحسد

وله أغانٍ وأناشيد بديعة في وطنه وقصائد رائعة؛ منها قصيدة

طويلة بعث بها إلى ولده (أمين) في لبنان قال في بعضها :

لي الله ما أهدى الهموم إلى قلبي	وأضيع جدي في محاذرة الخطب
لئن كانت البلوى بشرقيّ (لندن)	وكنت بأقصى الهند تدرج عن جنبي
وإن حبلت سود الليالي بنكبة	لما ولدت إلا ومفرشها قربي
وإن ثار ثوار بأية بقعة	من الأرض قالوا أنت مستنفر الشعب
وإن هيمنت نواحة الأيك في الضحى	شكوا ثم قالوا الذنب في شجوها ذنبي
شؤوني شؤون معجبات وبلوتي	بما ضمنت تلك الشؤون من العجب

فبي نفس حر للصغار لا كان غيره
وكل إلى حزب بلبنان ينتمي
وكل له فخر يمت بحبله
أعف واستعلي على الدهر إن خني
وأهزأ بالأقدار تقصو وتدني
تعودت أن أبكي لغيري وإنما
تجردت عن ذاتي كأني لم أكن
(أمين) ابني المرجو كن كيفما أنت
لئن مت فالأموات مثلي كثيرة
(بلادي) وما يلدي بسيري من ري
سواي فإن القوم أمثلهم حزبي
وجل فخاري أنني رجل شعبي
وأكبر حتى لا أرى الناس من تربتي
فمالي لديها مستوى البعد والقرب
بكائي لنفسي دونه منقض نحبي
لذاتي سوى في مطلب للعلی يصبي
سوانح هذا الدهر مستحصف اللب
وإن أجفل العليا وأفجعها خطبي

-و(لمعري فلسطين) الشيخ سليمان التاجي الفاروقي أشعار رائعة
قبل نفيه وبعد نفيه إلى بر الأناضول، وكنا نود نشر شيء منها فتخلفت
عنا بعض منتخباتها التي وعدنا بإرسالها صديق لنا .
هذا ما وصلت إليه يد البحث من هذا القبيل

* * *

كلمة الختام

أطلقت عنان القلم في مضمار هذا البحث استقراء لأهم شؤون الاعتقال والنفي، وما قيل فيها قديماً وحديثاً عند العرب والإفرنج، وتبسطاً في تشريح العواطف، واسترسالاً مع أهواء المنكوبين؛ ليتمثل للقراء الكرام تاريخ المصائب التي جرت على ملعب الأكوان في العصور المختلفة، فأحسن كل لاعب دوره في وقته، وترك للآتين حكماً وعبراً يتناقلها الخلف عن السلف، مميطة النقاب عن مبلغ تأثر كل مظلوم وما أنطقته به الحال من الأقوال، وما أفادته من الأعمال.

فعلى العاقل أن يستخرج من هذه الدروس الأدبية نتائج مفيدة، وذرائع نافعة، يتسلح بها في غمرات الأحزان، ويتسلى بها عند غدرات الزمان.

فيقول بلسان الشيخ عبد الغفار الأخرس العراقي:

فأقتحمها إذا نبت بك يوماً	إنما الجمد باباه الاقتحام
وادفع الشر إن قدرت بشر	ربما يدفع السقام السقام
فمضى تكبر العزائم بأساً	صغرت عندها الأمور العظام
وتقلد بالرأي قبل المواضي	ليس يجدي بغير رأي صدام

رب رأي في الخطب يفعل مالا
 وأحذر الغدر من طباع لئيم
 وادخر للوغى مقالة حرب
 لا تلومي فتى يخوض المنايا
 واصبري فالأسى سحابة صيف
 يفعل السمهري والصمصام
 عنده الغدر في الصديق ذمام
 لا تقوي الأجسام إلا العظام
 كل جبن إلى الحمام حمام
 ولربي بأمره أحكام

وينشد قول الشيخ عبد الباقي العمري الفاروقي البغدادي من
 قصيدة رائعة :

علينا أهلة هذي الشهور
 وداست ييادر أيامه
 وقد نثرته مذارى الخطوب
 وقد طحنته رحي النائبات
 وقد عجنته بماء الصدور
 وقد خبزته سليمى الهموم
 وقد قورته رغيفاً رغيفاً
 بكيانا على زمن مدبر
 عدت تحصد العمر في منجل
 بنات لياليه بالأرجل
 كنثر الحبوب من السنبل
 دقيقاً فما احتاج للمنخل
 أكف القطيعة في الموصل
 بمسجور تنورها المصطلي
 فقلنا لأم الدواهي كلي
 كما الطفل يكي على المطفل

ولا بد من بعد هذا البكاء سنبكي على الزمن المقبل
تشابه ذا اليوم مع أمسه فقسنا الأخير على الأول

[انتهت المقالات]

(سبحانك اللهم وبمحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك
وأتوب إليك).

* * *

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الشيخ عائض القرني.....
٩	مقدمة.....
١١	ترجمة صاحب مقالات (المشاهير والسجون).....
١٧	المشاهير والسجون.....
١٩	١- تمهيد.....
١٩	٢- سجن المشاهير.....
٢٣	٣- أعمال المسجونين في معتقلاتهم.....
٣٢	٤- أقوال الأدباء في المسجونين والمعتقلين.....
٣٦	٥- تمثل السجناء بأقوال غيرهم في سجونهم.....
٣٦	٦- أقوال المسجونين والمعتقلين من أدباء المشرق.....
٦٧	٧- أقوال المسجونين من أدباء المغرب والأندلس.....
	٨- أقوال المعاصرين وأعمالهم في سجونهم حتى أول الحرب العامة.....
٧٦	٩ - أقوالهم وأعمالهم في أثناء اعتقالهم بهذه الحرب العامة....
١٠٦	كلمة الختام.....
١٠٩	الفهرس.....